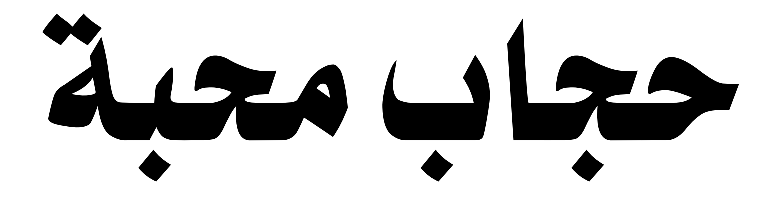
لنا عبد الرحمن



قصص مختارة

الكتاب: حجاب محبة (قصص مختارة)

الكاتب: لنا عبد الرحمن

الطبعة: ٢٠٢٢



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

عبد الرحمن ، لنا

حجاب محبة (قصص مختارة) / لنا عبد الرحمن

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٢ – ٢٧٥ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ١٤٦٠٥ / ٢٠٢١

حجاب محبة

قصص مختارة





بيت الأرابيسك

كنت أنا.. وليس أي أحد آخر، بطلة فيلم "موعد على العشاء". ينبغي عليّ الآن التصديق بأنني لم أضع السم في الطبق، ولم أتناوله تلك الليلة؛ لكن رغم كل ما حدث، وما لم يعرف أحد بحدوثه، ظللت على يقين بأني أنام مفتوحة العينين؛ لأنني أتمدد في سرير قاطع طريق، ذي شارب رفيع، ووجه لزج، يعود كل ليلة وعلى أظافره القذرة آثار دماء طازجة..

كنت أقول في سري: «لا بأس.. هذا أيضا سيمر»، وأعود لتأمل تلك اللوحة التي تضم صورة فتاة صغيرة تسحبها يد رجل ضخم، وهي تسير خلفه وليس سوى الضباب يمتد بينها وبينه.

في أحلامي، غالبا ما كنت أركض لاهثة لمسافات طويلة ثم أسقط مغشيًا علي؛ وحين أصحو أجد كل الأشياء في أماكنها، المزهرية التي تواجه سريري وفيها عود من البامبو ملتو على نفسه، الشباك المغلق، والستارة الرمادية، سجادة

الأرض الفستقية بجانب السرير، ورائحة بهار الكاري تتسرب من بيت الجيران، الكومدينو الذي أضع عليه بعض أدوات زينتي في مكانه أيضًا، فرشاة شعري ملقاة بإهمال قرب علبة ظلال العين، السلحفاة العجوز تقضم ورقة خس في زاوية الغرفة، ثم الدولاب الكبير يجثم بثقل عند الحائط المائل.

تذكرت اليوم معطف الفرو الذي أمتلكه ولم ألبسه منذ أتيت إلى هنا، أي منذ عشرين عامًا. الطقس حار لا يمكن أن يمنح ترف الأناقة المبالغ بها، الأناقة التي لا أحبها. لذا ظل المعطف الذي اشترته لي أمي مع تلك القبعة البلهاء في آخر دولاب ملابسي، كيف لم أفكر بالتخلي عنهما طوال هذه السنين ؟ لمَ لمْ أتخلص منهما كي أفسح مجالًا لدخول شيء آخر إلى دولابي الخاص؟

خبيرة «الفينج شوي» تؤكد أن عليك ترك مساحات شاغرة في عالمك؛ لتتمكن الطاقة الإيجابية من اقتحامه. لا توجد أي مساحة في دولابي. سأعيد التفكير بالأمر بحيث ألقي كل ما لا أحتاج إليه خارجًا. لو فتحت النافذة سيبدو لي الهواء راكدًا في مكانه، ظلال أشعة الشمس تتسلل عبر شقوق الأرابيسك من النافذة المقنطرة من أعلى، لكن في

حضور الظلال سطوة قوية لا يمكن إبعادها. كل شبابيك البيت محاطة بالأرابيسك، لا أعرف لمَ! إذ لم أختر شيئًا هنا، ولم أقدم أي اقتراح.

أحب أن أفتح الشبابيك على مصراعيها، وسماع صوت أطفال الجيران الذين يلعبون في الحديقة التي تقع أسفل البيت. الصوت الآمر يجعلني أبدو مثل هرة تتعلق بثقوب الأرابيسك لتبصر الشارع، ثم تسقط على الأرض. هل مضى عشرون عامًا على تمثيل دور القطة، وعلى وجودي هنا في بيت الثقوب هذا؟ ! هل مضى عشرون عامًا على تلك الليلة حين علا صراخ أمي لأنني قلت لها: «لا أريد أن أسكن في بيت رجل يرتدي زيًا لونه زيتي، ويضع مسدسًا على خصره يسبب لي الرعب». كان هذا الرجل ابن عمي، أمي قريبته أيضًا، هددت بالغضب والرحيل إن لم أرتضِ الذهاب معه، لم يكن مثل أبي أبدًا، أنا كنت أشبه أبي جدا، وهي كانت ترانا ساذجين ؛ لأننا لا نشبهها ولا نشبه ابن عمي صاحب البذلة الزيتية. كنت في سذاجة القطط حين صدقتها بأنها ستغضب، وسترحل إن لم أرضَ به، تدرك أمي دائمًا كيف تنفذ ما تريد بأي الوسائل، كيف تدير الرؤوس،

وتلعب بالأفكار. هكذا نقلت وصايتي منها إليه. وأنا لم أكن مرة وحدي، في بيت أمتلك فيه حق فتح النوافذ.

قرر هو أن ينزع عنه بذلته ويهاجر إلى هنا، تخلى عن مسدسه، وتحول إلى قاطع طريق حديث، لا يمكن لأحد أن يكتشفه. توقفت عن الخوف منه منذ زمن طويل، ليس لأنه خلع زيه، وترك مسدسه، وارتدى زيا آخر، بل لأنني اكتشفت أنه لن يؤذيني؛ فقد كان مندمجًا في عالمه، إلى الحد الذي لا يسمح له سوى بحبس القطط.

الحرارة مرتفعة، الشمس ترسل مراسيلها عبر الثقوب المحفورة في الخشب، ألمس ثقوب الأرابيسك بأصابعي، سطحها ناعم، تجاويفها غائرة، حادة قليلًا، أشم رائحة غبار قديمة، جانب وجهي ملتصق بالجدار قرب النافذة، أصوات هدير السيارات ترتفع بصخب، أبصر سيارة نقل كبيرة تتكدس فيها أجساد عمال بناء، كوت الشمس جلودهم بلا رحمة. أنا هنا في الظل، أحرك مقبض النافذة، صوت صرير عتيق، حين أفتح النافذة تتسلل إلى البيت روائح كثيرة، بعضها شهي يدفعني للتفكير بالطهو، بدمج مكونات كثيرة، لإعداد وجبة عشاء مميزة، فقد تمكنت أخيرًا من فتح النافذة.

الموتى لا يكذبون

طلبت من السائق التوقف حالاً، فقد كان ما شاهدته فوق مستوى الخيال!!كان خالي الذي مات منذ عام يقف على الرصيف المقابل ويستعد لعبور الشارع، نزلت بسرعة جنونية واندفعت نحوه، كان هو، حقاً، هو، ليس رجلاً يشبهه بل هو فعلاً.

بشرته السمراء المحروقة، عيناه الزيتيتان، شعره الأسود الفاحم، وندبة في أعلي جبينه تؤكد لي بما لا يحمل شكاً أنه هو، اقتربت منه رآني، غاصت كلماتي وابتعدت في أقصى تجاويفي، مد يده لمصافحتي فصافحته وأنا صامتة، وجهه كان بشوشاً سعيداً برؤيتي كما كان دائماً.

- كيف هي أمك وأخوتك الصغار؟

سألني بشوق:

- بخير، تمتمت بذهول:

– إذن هو خالي، ويذكرني جيداً ويذكر والدتي، لم أشأ القول "أنا أعرف أنك مت"، بل قلت وأنا على وشك البكاء:

– أنا بخير يا خالي وكيف أنت؟

لكنه أردفني بسؤال آخر فقال:

– أنت تتعجلين في قراراتك، لماذا تفعلين ذلك لقد كنت متهورة، لِمَّ وافقت على هذه الخطوبة؟ هذا الرجل لم يكن لك، وأنت لست له.

– غير معقول؟ أنت تعرف بأمر خطوبتي أيضاً، ابتسم ابتسامة حانية وهو يقول:

– يا صغيرتي.

– أنسيتي أنني ربيتك طفلة، وأعرف ما تختارينه، وما تفعلينه قبل أن تقومي به.

الشمس كانت حارقة في الشارع، بدأ العرق يتصبب مني وأنا مازلت أنظر إليه بدهشة لكنه كان هادئاً وعادي الملامح كما لو أنه كان عندنا الأسبوع الماضي.

- انتبهي لنفسك أكثر، ولا تتسرعي، قالها لي بسرعة وعبر الشارع فيما أنا أحدق في ظله المبتعد. غير معقول، هناك خطأ، لابد أن الذي مات لم يكن خالي، عليّ العودة إلى البيت حالاً كي أقول لأمي إن خالي مازال حياً وإنني رأيته وتحدثت معه.

دخلت إلى منزلنا، كانت أمي تقطع الطماطم في المطبخ، اندفعت نحوها وقلت بصوت مرتفع:

- ماما خالي مازال حياً لقد شاهدته و.. و.. وراحت أمي تبسمل وتحوقل، غير مصدقة ما أقول، ثم وضعت يدها على رأسي وقالت:

- رأسك ساخن، يبدو أن حرارتك مرتفعة لا.. لا أنا لا أهذي صدقيني لقد رأيته، قولي لي هل أنت متأكدة أن الذي مات منذ عام هو خالي، هل شاهدت غسله، هل شاهدتيه وهو ميت.

وكأنني أواجهها بحقيقة أخرى فقالت:

- لا لم أشاهده، لا يمكن للمرأة أن تحضر غسل رجل غير زوجها، الوحيد الذي حضر غُسل خالك كان قريبنا

"عواد" نامي الآن، يبدو أنك مريضة جداً.

لم أنم، ولم تغفو عيناي تلك الليلة، وجهه لم يفارقني أبداً، انتظرت شروق الصباح بفارغ الصبر كي أذهب إلى بيت قريبنا عواد لأنه يسكن في منطقة بعيدة جداً، لم يكن يأتي لزيارتنا إلا في مناسبات الأفراح والأحزان.

في ساعات الصباح الأولى انطلقت إلى بلدة عواد استغرقت ساعتين من الوقت، استقبلتني زوجته بترحيب، لكنها استغربت زيارتي، ولم أجد عواداً، قالت لي إنه ذهب إلى عمله، رجوتها أن ترشدني إلى مكان عمله لأني أحتاجه في أمر هام وصلت إلى المكتب الحكومي حيث يعمل "عواد"، فاستقبلني بود ظاهر رغم أنه احتاج لنصف دقيقة كي يتذكر ملامحي، بعد هنيهات لم أجد ما أقوله، وبدت زيارتي غير مبررة إطلاقاً.

قلت:

- يا عمي "عواد" أنت حضرت غسل خالي، أليس كذلك؟

نظر إلى بدهشة، ثم قال "رحمة الله عليه كان رجلاً طيباً

جداً، لو كان تزوج وأنجب ولداً يحمل اسمه.." لم أسمع بقية عباراته غامت عيناي وراء مشهد لقائي الأخير مع خالي.

عدت من منزل عواد وقررت أن أذهب إلى الدائرة الحكومية التي تختص بشؤون الوفيات سأحصل على شهادة وفاته لأتأكد أن ما يجري حقيقة

لكن الموظف الحكومي لم يجد شهادة وفاة خالي، ووجد شهادات وفاة وأسماء كثيرة تتشابه معه، خرجت من هناك وأنا أشعر بفرح كبير. إذن لابد أن الرجل الذي التقيت به هو خالي فعلاً.

– لكن كيف لي التأكد؟

صعدت في السيارة وطلبت من السائق أن يقودني إلى الشارع الذي التقيت به خالي البارحة، كان الشارع كبيراً ومزدحماً، رحت أسأل المحلات القديمة والعابرين في الشارع، والبائعين الجائلين ومطاعم الوجبات السريعة، إن كان أحد منهم يعرف رجلاً بهذا الاسم، لكن الجميع أجابني بالنفي المطلق، ماعدا صاحب الفرن الذي قال لي إن هذا الرجل يسكن في الشارع المجاور وعنده طفلان، هل من المعقول أن

خالي كان متزوجاً بالسر؟ذهبت إلى حيث أرشدني نحو منزل صغير في آخر الشارع، خرج إلي رجل شاب في الثلاثين، لم ينكر اسمه، لكنه لم يكن خالي، حكيت له أنني أبحث عن رجل يحمل الاسم نفسه ويسكن في هذا الشارع، فأكد لي أنه لا يوجد غيره هنا بهذا الاسم.عدت أسير بخطواتي المتكسرة لأول الشارع يغمرني إحساس بكآبة مطلقة "لابد أنني مريضة" أنا أهذي وأتخيل، ولابد أن خالي مات حقاً وأن الرجل الذي التقيت به، لم يكن إلا وهماً كبيراً.سرت نحو أول الشارع، صعدت إلى السيارة، وقررت العودة إلى منزلي، ما إن أغلقت باب السيارة والتفت ورائي حتي رأيت "خالي" يصعد في سيارة أخرى وتنطلق به في الاتجاه المعاكس، نظر إليّ وهو يبتعد، وعلى وجهه ابتسامة، أنا لا أتخيل إذن؟ هذا هو خالي وأنا لا أهذي أبداً، كدت أجن، من سيصدقني؟وصلت البيت، حكيت لوالدتي كل ما حدث وقلت لها يجب أن تصدقيني، وتقتنعي أنني لا أكذب عليك.

نظرت إليّ بشفقة، بدت في غاية القلق، "نامي يا ابنتي، أنت تعانين من حمى" لا أنا سليمة تماماً، صدقيني خالي لم يمت هو حي، ولم أحصل على شهادة وفاته .

– هل حصلت عليها أنت خبريني؟

– لا لم أحصل عليها؟

– كانت أيامها الحروب مشتعلة وبالكاد تمكنا من غسله ودفنه.

– أعطيني مفتاح بيته أرجوك أريد أن أرى بيته. ناولتني المفتاح، فغادرت بيتنا وتوجهت إلى بيت خالي القديم، المبنى شبه متآكل، لكنني صعدت نحو شقة خالي، فتحت الباب ودلفت إلى الداخل المظلم، أضأت النور، ورفعت الستارة، لا غبار في المكان، ولا رائحة عطن تدل على أن المكان مهجور منذ عام، رحت أتجول في الغرف، كل شيء في مكانه على خير ما يرام، وقفت في غرفة الجلوس التي تطل نافذتها على شرفة صغيرة، نظرت على الزرع، ورقها مازال أخضر، وإلى جانبها يوجد كرسي صغير وطاولة مستديرة عليها علبة دخان "روثمان" فارغة.

– أليس هذا هو النوع الذي كان يدخنه خالي؟

أخذت علبة الدخان الفارغة، نزعت خاتم الخطوبة من يدي اليسرى، وقررت مغادرة المكان.

مدينة الألعاب

راقبت لاعبة السيرك وهي تحاول أن تتوازن على الحبل الذي تسير عليه، تماهت مع ميلها للتوازن، وحرصها على عدم السقوط، تتحرك اللاعبة بخفة وحذر، تضع قدمها الصغيرة التي تنتعل فيها حذاء مطاطيًا على الحبل المتدلي بين طرفين.

ثمة أسد رابض على الأرض، يفتح فمه، ربما يكون جاهزًا لالتهام الفتاة، يسوطه مدربه بقوة تخزها. تراقب الجميع حولها، الأطفال يدركون أنها لعبة، والكبار يستمتعون بالمشاهدة، لا توجد أي ملامح اضطراب على وجه أحد سواها. تنظر إلى أعلى، إلى الخيمة المخروطية، تتأكد أن كل ما يحصل يجري في مدينة الألعاب، وأن هذا كله مجرد عرض ليس إلا، عرض سينتهي بعد قليل.. تعود عيناها لمتابعة حركة الفتاة التي صارت معلقة في وسط الحبل، فوق رأس الأسد تمامًا. تندفع من فمها شهقة تدفع ابنها ليقول لها:

«ماما، أنت خائفة؟ لقد شاهدتُ هذا العرض قبل الآن

في رحلة المدرسة، لا تخافي، لن يحدث شيء».

تجنبت مرارًا الدخول لمدينة الألعاب، إنها مكان مفزع بالنسبة إليها، كل ما فيه يدفع للدوار، لأن الأشياء تكون في موضعها المناسب تمامًا، وفي العالم الخارجي الأشياء لا تكون على هذا الحال، العالم في الخارج مضطرب، ومدينة الألعاب تخلق اضطرابها الخاص الذي تراه منظمًا مقارنة مع اضطراب العالم، وهي لم تعد قادرة على احتمال هذا النظام والخروج من اضطرابها إلى نظام لا تعرفه. العالم في مدينة الألعاب يقوم على لعبة. لعبة متقنة ليس إلا. وهي لم تعرف متعة الاستمتاع باللعب.تذكر وهي طفلة، حين انكسر سنها الأمامي بعد ارتطام السيارة التي تقودها في لعبة السيارات بسيارة أخرى. نزفت الكثير من الدم، ولم تعد قادرة على الإستمتاع باللعب أبدًا.

عبرت الفتاة الحبل الرفيع، ونزلت منه بخفة، طوت جذعها لتحي الجمهور، ثم رفعت ساقيها في الهواء، لتتسلق حبلًا يتدلى من الأعلى. لم تكن قادرة على مواصلة المشهد أكثر، كانت الفتاة تؤدِّي كل الحركات التي لم تستطع هي يومًا القيام بها. تسمع صوتًا في عقلها يقول: «إنها لاعبة

سيرك، لاعبة تعرف كيف تمشي على الحبال الرفيعة». فتسمع صوتاً آخر يرد: «لا يهم، لا يهم، لكنها قادرة على القفز، على التسلق، ومراوغة الأسد والفرار منه دون أن يلتهمها».

يتجادل صوتان في داخلها، تحس أنها على وشك الصراخ، وهي تتخيل أنها لو كانت مكان اللاعبة، سيلتهمها الأسد لا محالة.

تترك ابنها في داخل الخيمة المخروطية، تخبره بأنها ستنتظره في الخارج. يهز الولد رأسه وهو يتابع حركات المهرج الذي يدهن أنفه بالأحمر، ويضع على رأسه قبعة الساحر، قبعة سوداء من قماش الشاموا، لا تتناسب مع وجهه المدهون بأصباغ كثيرة، يبدو أن تلك القبعة استعارها في اللحظات الأخيرة من رفيقه الساحر لأنه فقد قبعته الحمراء. أليست الأشياء مرتبة في مدينة الألعاب؟ كيف يفقد المهرج قبعته إذن؟ كيف يستعير قبعة الساحر الأنيقة التي يستخدمها لإخفاء الأرنب؟

في الخارج، أشعلت سيجارة، لم تكن تدخن في المعتاد،

إلا حين تحس باضطراب كثيف. كانت على وشك الدخول في حالة من الإغماء، تقاومها بالتفرج حولها، تأمل عوالم المدينة الصغيرة. التي تتوزع إلى غرف بلاستيكية، وخيم، وتنطوي على حيلها وحكاياتها وخفاياها. ستظل جالسة هنا، ريثما ينتهي ابنها من متابعة العرض، لن تبرح مكانها أبدًا، خشية دخولها في دوار جديد. على يمينها شاهدت أشكالًا مرعبة لأشباح مرسومة على قماش سميك، وستارة سوداء طولية خلف الرسومات الشبحية، وفوق الستارة عبارة «مدينة الأشباح»، وبجانب العبارة رسم لعلامة القرصان عظمتين متقاطعتين. على يسارها كانت مجموعة من الأرجوحات التي تعلو وتهبط في حركة مستمرة. قررت ألا تنظر إلى أي الاتجاهين، لكن رغمًا عنها كانت الاتجاهات تتدافع أمامها وتتقاطع عند نقطة واحدة. عند بوابة إحدى الخيم ارتفع صوت دوي نار، أو انفجار مفرقعة ارتفعت في الهواء، وانتشرت معها رائحة البارود، الناس حول الخيمة يصفقون كما لو أنهم في كرنفال.

قررت السير للأمام، بحثًا عن مقعد آخر ليس ببعيد، كي لا تشم رائحة البارود، ولا ترى مدخل مدينة الأشباح أو

الأرجوحة التي تسبب لها دوارًا. سارت عدة خطوات بحثًا عن مقعد، كان رجل خمسينيًا أسمر يرتدي بنطلون جينز أسود ومعطفًا رماديًا، يجلس على طرف مقعد مجاور لخيمة السيرك من الجانب الخلفي، لم تستأذنه لتجلس على طرف المقعد. التفت نحوها، ثم أبعد وجهه بسرعة، تلك الالتفاتة كانت كافية لتتذكره على الفور. لم يتذكرها الرجل أبدًا، لكنها هتفت به:

«ألا تذكرني؟».

ابتسم الرجل وهو يهز رأسه باستفهام. حاولت أن تذكره بنفسها، بأنها ابنة فلان صديقه، قالت له إنها تذكره من أيام الطفولة، حين كان يأتي إلى بيتهم، وكانت تجلس أحيانًا على ركبته، وكان يحضر لها شوكولا مارس، أخبرته بأن أباها اختفى بعد نهاية الحرب، في ظروف غامضة، ولم يُعرف عنه شيئًا، كانت تتحدث وتتحدث، عن تفاصيل مضت من أيام الطفولة. لكن الرجل استمع باهتمام من دون أن يقول عبارة تفيد بأنه تذكر شيئًا.

عادت لتقول له مؤكدة: «أنت تمثل لي شيئًا مهمًا، ظل

أبي بعد سفرك إلى لندن يحكي لنا عنك، عن حنينك لوطنك، عن القصائد التي تكتبها، كان يقرأ لنا أبياتًا من قصائدك».

وكأنما لمعت في عيني الرجل ذكرى شحيحة، أضاءت وجهه.

في تلك اللحظة، خرج ابنها من خيمة السيرك، اندفع نحوها ويبدو عليه بعض الغضب: «ماما أين أنت، بحثت عنك»، نظر إلى الرجل الذي يجلس على طرف المقعد الآخر، لم يعره اهتمامًا، شدها من يدها وهو يقف بجوارها قائلًا:

«ماما، تعالي، أريد أن أدخل إلى مدينة الأشباح».

ظل الرجل صامتًا، لم يقل أي كلمة. ربما تابع خطواتها وهي تمضي مبتعدة.

كانت تفكر، ماذا يفعل هذا الشاعر في مدينة الألعاب، هل كان ينتظر أحدًا ما؟ لم يجلس هنا، لمَ لمْ يتكلم أبدًا، لمَ لمْ يتذكرها، لم يتذكر صداقته لأبيها، وأيامهما التي مضت بين حرب وحرب؟

سار الولد خطوتين، وهي خلفه، يشدها من يدها وهي

تسير ببطء. التفتت إلى الوراء، كان المقعد شاغرًا، والرجل الخمسيني ذو المعطف الرمادي يمضي في اتجاه آخر، ربما نحو خيمة السيرك.

في مدينة الألعاب، تعود الأشياء إلى أماكنها المناسبة، ويبدو الأشخاص على حقيقتهم أكثر مما هم في الحياة.

البحر يتجه شمالا

تلك الطفلة، أخبرته بأنها فقدت والدها، منذ زمن طويل. حكى لها أنه فقد والدته أيضا. بكيا معًا. لم تمسح دموعه، ولم يطلب منها أن تتوقف عن البكاء. ظلا في مكانهما، صامتين، يرنوان نحو البعيد، وينتظران مضى العاصفة.

كان كل منهما يستعيد ذاكرته، بتعاطف مشوب بالحاجة إلى رؤية الآخر أكثر سلامًا، لكن خلال سيرهما على الشاطئ المليء بالحصى، لفت انتباهه طرف ثوبها الوردي المشغول بخيط رفيع من الدانيل، كان طرف الثوب يلامس الحصى. راوده احساس أن ذاك الحصى مبتهج الآن بملامسة حافة الثوب له.

«كلنا بحاجة إلى البوح، لتنظيف جراحنا»، هكذا قالت له.

سمع هذه العبارة مرارًا، لكنه أحس بأنها المرة الأولى التي يسمعها بلا نغمة مكررة. لم يسألها كيف فقدت أباها، ولا

باح لها بحكايته، بل أخبرها بأنه سيقص عليها ماذا فعل به البحر.

حينما كنت صغيرًا، كانت أمي تأخذني معها إلى البحر. لم تكن هناك مواعيد محددة لذهابها، ربما كانت تستغل الأيام التي يغيب فيها جدي أو يسافر إلى دمشق، ثم كانت تطلب مني ألّا أبوح أمامه بأننا ذهبنا إلى الشاطئ.

الوصول إلى البحر يتطلب منا أن نعبر مسافات طويلة، من بلدتنا في بعلبك إلى بعلبك المدينة، ثم إلى شتورة، مرورًا بزحلة، ثم ضهر البيدر وصوفر وبحمدون وعالية، نمر بكل الطريق الجبلي الطويل قبل وصولنا إلى بيروت كي نلتقي رجل البحر. الرجل الذي يشتري لي البيبسي والشوكولا، ويعد لها وجبة من السمك المقلي في بيته الصغير المطل على البحر، لم يكن بيتًا على ما أذكر، كان أشبه بالكوخ.

ما إن نصعد إلى سيارة التاكسي حتى تتناول من حقيبتها شريط كاسيت، تمد يدها إلى السائق وتطلب منه أن يضعه. كانت أغنية عن البحر أيضًا. كنت أرى السعادة تثب من عينيها، وهي تحتضنني وتقبلني على جبيني وخدي وتسألني إن

كنت أحس بالعطش أو الجوع. تناولني زجاجة عصير أناناس، وقطعة من الشوكولا وتطلب مني أن آكلها.

حين يراني رجل البحر برفقتها، يرفعني عاليًا على كتفيه، ويركض بي على الشاطئ قبل أن يضعني على الرمل وينزع عني ثيابي. يقول لها إن علي تعلم السباحة منذ الصغر، لكنها تطلب منه أن يدعني وشأني. لم تكن ثيابي تتناسب مع الرمل ولا مع الشاطئ، كنت طفلًا أنيقا كما أراد لي جدي أن أكون.

في المرة الأخيرة التي زرنا فيها رجل البحر قالت له إنها ستتأخر في الحضور إليه، وربما ستتغيب لوقت طويل، لأن جدي لن يبتعد خلال المدة القادمة ولن يغادر إلا للإشراف على محاصيله الزراعية. طلب منها رجل البحر أن تترك أباها وتأتي لتعيش معه. نظرت حولها إلى الكوخ وقالت له إنني سأدخل إلى المدرسة هذا العام.

أمسكني رجل البحر من يدي، فبدت يده ضخمة جدًّا مقارنة بيدي الصغيرة، ثم قال لي إن شعري يشبه شعره. كان شعري أسودَ وكثيفًا مثل شعره، لكن شعره كان طويلًا يصل

إلى أول رقبته.

حين عدنا إلى بيتنا في بعلبك، وجدنا جدي ينتظرنا، عاد باكرًا من سفره هذه المرة، كنت أغني أغنية البحر، ارتجفت حين رأيته.

عادة هو لا يتحدث معي كثيرًا، لا يلاعبني، كان صامتًا أغلب الوقت.

اقترب مني وسألني: «أين كنت؟»

- كنت عند البحر.

-ومن رأيت؟ سألني بتجهم.

حكيت له عن رجل البحر، وعن يديه القويتين اللتين تحملانني، وعن شعره الأسود الذي يشبه شعري.

بدت عيناه كتلتين من جمر ملتهب، تحرك نحوها أمسكها من شعرها، هزها بعنف شديد وهو يقول لها:

"منذ خمسة أعوام ذهبتِ إليه، إلى من بصق في طعامنا، وكانت هذه النتيجة".

قال هذه العبارة وهو يشير بسبابته إلي، أحسست بالفزع، التصقت في الزاوية.

«سأقتلك»، قالها لها وهو يضع يديه حول عنقها، وهي ترفسه محاولة التملص منه وهي تصيح في وجهه:

«أنت دمرت حياتي.. دمرت حياتي».

كان يشدها محاولًا خنقها بيديه وهي تحاول الهرب.

من على الحائط خلفها تمامًا أخذت الفأس المعلقة للزينة، الفأس التي يفتخر جدي بأنه ورثها عن والده ويعلقها في صالونه كتحفة نادرة.

ضربة.. ضربتين.. ثلاثًا.. دماء تسيل على الأرض.

قتلته هي.

هكذا حدث القتل.

هكذا كان اليوم الأخير.

اليوم الأخير الذي رأيت فيه رجل البحر، ورأيت فيه أمي، وجدي.

ذهبت أمي إلى سجنها، وذهب جدي إلى مثواه الأخير، ولم أرَ رجل البحر مرة أخرى، حملني خالي معه إلى البرازيل ليبتر كل خيوط ذاكرتي، ليشكلني على هواه. أنا الشاهد الوحيد على كل ما كان.. أنا طفل رجل البحر، ما زلت أذكر حتى الآن أغنية أمي، تلك الأغنية البحرية عن رجال البحر. لكن أنا الآن هنا، أمام بحر بعيد، غريب، ليس له صلة مع ذاكرة بحر آخر.

«هل آلمتك حكايتي أيتها الصبية؟».

لم ترد. انحنت لتلم الحصى الصغير عن الشاطئ، ابتسمت وهي تمد يدها اليمنى نحوه، بينما يدها اليسرى تقبض على الحصى، ثم قالت:

«دعنا نمضي من هنا، من أمام هذا البحر الغريب. سوف نمضي نحو شاطئ رملي، لكن دعني ألقِ قبضة الحصى من يدي قبل البوحِ بحكايتي، كي أحكي ماذا فعل بي البحر أيضا؟».

صندوق كرتوني يشبه الحياة

اسمع يا خليل.. حكايتي مع سلمى بسيطة، في غاية البساطة، لكنني لم أنسها بسهولة.

تخيل أنك تمشي في الشارع، ثم فجأة يظهر أمامك صندوق كرتوني كبير، ويُفتح من تلقاء نفسه وتنطلق منه أشياء سحرية وحدك تراها، مظلة تعزف ألحانا ثم تطير في السماء، قزم يرقص وهو يرتدي قبعة حمراء، تنين مجنح يطلق النيران من فمه، جنية لطيفة تحلق على مستوى بصرك، فتحول غبار المدينة إلى ألوان قوس قزح، تحيل الشوارع المزدحمة والقذرة إلى شوارع يتجمهر فيها الناس ببهجة كما لو أنهم يستعدون لكرنفال.

كان عبور سلمى في حياتي يشبه هذه التفاصيل، مع الفارق، أني التقيت في عالمها مع «مسرور» سياف «ألف ليلة وليلة».. أنت لا تصدقني، لكن هذا ما حدث بالفعل، إذ بعد لقائي إياها بساعات ذهبنا إلى بيتها، وهناك فوجئت بوجوده، صاحب جسد ضخم، أسود، مفتول العضلات، يلعب بجنزير ثقيل من الحديد.

سأحكي القصة من البداية..

في نهار مثل كل الأيام، المملة، الروتينية، المتشابهة، التي تبتلع عمري، استيقظت وفعلت ما أفعله كل يوم، تلك التفاصيل تبدو لي ثقيلة جدًّا، الاغتسال الصباحي، تنظيف أسناني، تسريح شعري، ارتداء ثياب نظيفة، تناول الطعام والذهاب لوظيفتي التي مضى على وجودي بها أكثر من ربع قرن؛ إحساسي بثقل التفاصيل منحني إجابات عن أسئلتي عن خروج الناس من بيوتهم في هيئات مزرية، لأول مرة غمرني تعاطف حقيقي نحو هؤلاء الذين أصابتهم لعنة الملل مثلي، والتساؤل عن جدوى التمسك بالتفاصيل اليومية الروتينية البسيطة لمواصلة الحياة.

في ذلك اليوم، أخذت معي دفتري الذي أكتب عليه سيناريو فيلمي الجديد. كلما شاهدتني زوجتي وأنا أستعد للخروج من البيت أحمل الدفتر في يدي، نظرت إليّ تلك النظرة الساخرة التي أعرفها. هذه المرة كانت تكوي قميصي الأبيض، المكواة في يدها اليمنى، ترتدي ثوب نوم بدون أكمام، قلت في سري إن موهبتها في التمثيل جيدة، لكنها مثلي لم يحالفها الحظ، كنت أعرف أنها تقول في سرها إنني

السبب في فشلها، منذ أن أدت دور البطولة في الفيلم الأول الذي كتبت قصته، وفشل فشلًا ذريعًا. بعد ذلك توارت زوجتي عن الشاشة، وحين أقول توارت أعني أنها اختفت فعليًا، أنجبت طفلين وأنهت علاقتها بالعالم الفني، وتركتني وحدي أعيش أحلام كتابة فيلم يعيدني إلى دائرة الضوء. آه، صحيح، يجب أن أكون دقيقًا في تعبيراتي، لم أكن في دائرة الضوء كي أعود إليها.. المهم يا خليل، سأعود إلى حكاية سلمى، في هذا اليوم الممل مثل سائر الأيام، كنت أتوجه إلى عملي، ركبت المترو، ونزلت في محطة العتبة، ومشيت إلى شارع شريف، في هذا الصباح الصيفي اللطيف رأيت مشاجرة في إحدى زوايا الشارع، كان هناك ثلاثة شباب وفتاة، يدور بينهم عراك لا أعرف سببه، لكنه أثار فضولي لمعرفة أسبابه.

أنا لست ذاك الشاب القادر على التدخل لمواجهة شباب يعاكسون فتاة في الشارع، الأمر ليس كذلك، لكن من وسط بؤرة الظلام أو الزحام، كانت عيناها تلمعان وتتوسلان كي أقترب، كانت على وشك أن تناديني باسمي، أو هذا ما تخيلته، لذا اقتربت، عبرت الجموع واتجهت نحو

الفتاة، سحبتها من يدها وأنا أقول: «ابْعِدْ انْتَ وهُوّا»، كان في صوتي لحظتها، قوة جبارة، حاسمة، هل تعرف تلك القوة التي تأتي إليك فجأة مثل قبس نور من إله غامض، فتجعلك مهابًا في أعين الجميع، كما لو أنني هرقل، أو شمشون الجبار، اتسعت الدائرة وعبرت أنا وهي مثل ملك وأميرة، إي والله.. كان اللغط يدور خلف ظهري، يشبه التحليلات الفلسفية بعد حدث كبير، لكن هذا التفصيل هامشي ومجرد استكمال للصورة، الحدث سيكتمل حين أقول لها: «ما رأيك لو نجلس هنا؟». كنت أشير بيدي نحو مطعم فاخر، يقدم قهوة وإفطارًا لذيذًا عند الصباح، وقائمته مزدحمة بوجبات لحوم ودجاج عند الظهر وفي المساء.

حين جلسنا في المقهى، طلبت هي بيكاتا بالمشروم، آه فعلًا هذا ما حدث.. «بيكاتا على الصبح»، هكذا قال الجارسون مندهشًا من الطلب، ردت عليه سلمى بقوة: «آه الصبح.. وانت مالك؟». عاد الجارسون بعد أقل من ساعة، وضع أمامها طبق بيكاتا بالمشروم والأرز، كنت حينها أشرب قهوتي، وأحكي لها عن الفيلم الذي أنوي كتابته. لم يبدُ أنها مهتمة بما أقول، كانت تأكل بنهم، بدا لي أنها جائعة جدًّا،

ورغم هذا لم تكمل الطبق كله، ونادت الجارسون وطلبت أن يضع لها ما تبقى منه في علبة بلاستيكية. لم تحكِ عن الحدث الذي أدى لتعارفنا، الشباب الثلاثة الذين اجتمعوا حولها وحاولوا التحرش بها في أحد الشوارع الجانبية، بل غيرت مجرى الحديث حين حاولت معرفة إن كانت تعرفهم، أو إن كان ما حدث مجرد صدفة. كل ما قالته لي: «هذا يحدث معي دائما». جملة مبهمة لم تضف عليها أي توضيح، ما الذي يحدث معها دائمًا، التحرش؟ أم لقاء شخص غريب مثلي؟

قامت إلى الحمام، تمليت من قوامها المعتدل الأميل للطول، كانت بيضاء تلك الدرجة من لون البشرة القشدي، شعرها طويل فاحم السواد. عيناها السوداوان ذكرتاني بشطر بيت الشعر القائل:

«الوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود». وجنتاها مرتفعتان، وذقنها رقيق، شفتها السفلى وردية وتتدلى قليلًا إلى أسفل. كانت ترتدي بنطلونًا من الجينز الضيق، وبلوزة ذات لون برتقالي شاحب، وهي عائدة كان نهداها يرتجان مع كل خطوة، خمنت أنها ترتدي حمالة صدر رخوة، تجعل ثدييها يتقافزان. لم تكن قد تجاوزت

الخامسة والعشرين من عمرها، على ما أظن، وكنت قد تجاوزت الخمسين بكثير من الأعوام.

كيف أشرح لك يا خليل.. سلمى لديها تلك الطلة الملكية، ربما هي ليست فاتنة الفاتنات، لكنها تمتلك نظرة مترفعة تتحدى العالم بسخرية واضحة، لكن ليس هذا هو المهم فقط، سلمى خلقت في داخلي حالة من الفرح، أنا عاجز عن الشرح، أو الوصف بدقة لما حدث معي، لكن دعني أكن محددًا، كي لا يلتبس عليك الأمر، لا، ليس الحب ما أعنيه، ولا الرغبة، هذا لا يعني أنني لم أرغب بها، بل على العكس هذا كان متاحًا منذ الساعات الأولى، بعد أن غادرنا المقهى قالت لي بوضوح: «أنا تحت أمرك»، جملة غامضة نوعًا ما، ممكن أخذها على أكثر من وجه، لكنني ابتسمت وقلت لها، إن لدي رغبة بالمشي على كورنيش النيل، رحبت بالفكرة وسرنا سويًا لمدة ساعتين.

لم أعرض عليها أن نترافق للسرير لأسباب نفسية تتعلق بطقوسي فيما يتعلق بالجنس، أي: أمن المكان ونظافته. فكرت أين سأذهب معها؟ وأين سأكون على راحتي، أنا لا أحب ممارسة الجنس إلا في بيتي، حتى علاقاتي وخياناتي

الزوجية قمت بها في غرفتي، خليل.. أنت رجل وتدرك أن الجنس والخوف لا يجتمعان، في المرات التي حاولت فيها ممارسة الجنس في أماكن أخرى غير بيتي، فشلت فشلًا ذريعًا، لكن يبدو أن الأمر يتعلق بتجاربي الأولى مع الفنادق الرخيصة، وما حدث بها من فضائح. لا أريد الخوض في الماضي الآن، سأعود إلى حكايتي مع سلمى وأوضح أن السبب الأول في تفضيلي المشي على الجنس هو عدم توفر مكان آمن، زوجتي لن تذهب للمبيت عند أمها كما يحدث مرتين في الأسبوع، هذا لن يحدث إلا بعد يومين، وعليّ الانتظار إذن، والحفاظ على علاقة جيدة مع سلمى. لا أستطيع الجزم بأن سلمى بائعة هوى، أخبرتني أنها تعمل سكرتيرة في شركة، وأنها تدرس في الجامعة المفتوحة، ضحكت وهي تخبرني عن دراستها، أبديت تعجبي، حينها قطبت حاجبيها واعتبرت أنني أستهزئ بها.

لم أذهب للعمل في ذاك اليوم، أنا موظف حكومة ولديّ فائض من الإجازات. سأستفيد من كل تلك الإجازات في نزهات مثيرة مع سلمى أعيد فيها اكتشاف القاهرة من جديد.. تجولنا في شوارع وسط البلد، وأمسكت سلمى

بذراعي ونحن نعبر الشارع، وفي كل مرة كنا نضحك كثيرًا. ثم تناولنا الآيس كريم من محل "العبد"، كانت سعيدة، وكنت سعيدًا، وفي آخر اليوم، كان على كل منا أن يعود لعالمه، لكنني لم أقوَ على فراقها قبل أن أتيقن من رؤيتها من جديد.. هل هذه حماقة، آه ربما!

رفضت سلمى في البداية أن أمضي معها لأعرف أين تسكن، أعطيتها مبلغًا من المال قبل أن تغادرني، وضغطت على يدها في شبه توسل كي أوصلها إلى بيتها.

صعدتُ معها في المترو، ثم نزلنا في محطة «الجيزة»، ثم ركبنا «ميكروباص» مضى بنا في مجاهل لم أرها في حياتي، وبعد أن نزلنا من الميكروباص ركبنا في توك توك، ثم بعد نزولنا من التوك توك أخبرتني سلمى أن علينا المشي قليلًا وسط طريق ترابي ومتعرج، مليء بالحفر، وعلى جانبيه بيوت متلاصقة بشكل عشوائي. إنه عالم جديد بالنسبة إليّ، بدت لي سلمى في تلك اللحظة مثل وردة ملقاة في القمامة، وبدا لي الصندوق الكرتوني الذي انفتح في وجهي صباحًا، أشبه بصندوق حديدي يصدر غازات سامة. تحسست دفتري الذي أكتب فيه سيناريو الفيلم الجديد، حسنًا، ها أنا أمام حكاية

واقعية، لا بأس، ربما يأتي كُتاب السيناريو إلى هذه العوالم كي يستوحون منها قصصًا لأعمالهم.

بيت سلمى عبارة عن ثلاث غرف متلاصقة مثل عنابر السجن، لا توجد فيه كهرباء، ولا ماء. كل شيء فيه ملفوظ إلى الخارج، حتى أطباق الألمنيوم والأواني المحروقة التي يطهون فيها طعامهم متروكة أمام باب البيت. لا أستطيع وصف والدة سلمى بدقة، من الممكن للكاميرا أن تنقل لك صورة تلك المرأة، لكن لغتي لا تسعفني.

حسنًا يا خليل، دعني أختصر عليك، والدة سلمى عاهرة سابقة، باترونة حالية، شيء من هذا القبيل، حين شاهدتنا نقترب، كانت تجلس على مصطبة البيت، ترتدي قميص نوم وشعرها منكوش، في يدها سيجارة، أسنانها متآكلة ومنخورة، بدأت أحس بالخوف حينها، من غير المعقول لهذا الكائن البشع أن ينجب ذاك الكائن البديع، نقلت بصري بين سلمى وأمها، في الحقيقة كان هناك شبه في عظام الوجه وتدلي الشفة السفلى، بادرت بالصراخ في وجهها: «جايبة مين معاكي النهاردة؟»، لم ترد سلمى، ألقت في حضن العجوز علبة سجائر سحبتها من جيب بنطالها

الجينز، ثم مضت وهي تشدني من يدي نحو الداخل.. هل وقعت في عصابة؟ لكنني لم أرغب بالفرار، كنت أحس بخدر لذيذ. سحبتني سلمى إلى إحدى الغرف، اقتربت مني وحاولت فك أزرار قميصي.

- لا.. لا، ليس الآن.

بدت مندهشة لرفضي، هي لا تعرف لمَ أتيت معها إذن، ولمَ أعطيتها المال.

قلت لها: «يوم الخميس عندي في البيت».

هزت برأسها إشارة بالموافقة، قادتني من يدي لأغادر المكان. في الخارج كان يوجد رجل أسود ضخم الجثة يشبه السياف مسرور في «ألف ليلة وليلة»، لا أدري، أحسست بأنني رأيته من قبل، هل كان ضمن الذين تشاجرت معهم سلمى في الصباح؟ لم أتمكن من الجزم بالأمر، أشياء كثيرة تخيل إليّ منذ هذا الصباح.

اعترض مسرور طريقنا، وهو يلوح بيديه بجنزير حديدي ضخم، كان على وجهه أمارات شر وشراسة لا تخطؤها العين. قالت سلمى، إن هذا أخوها الأكبر. اقتربت منه وهمست في

أذنه بكلمات لم أسمعها.

مشيت معي في الطريق الترابي، وركبت التوك توك معي أيضًا، ثم رافقتني إلى الميكروباص، حينها رفضت أن ترافقني أكثر وطلبت منها العودة إلى بيتها.

خليل.. الحياة مملة بعد الخمسين أليس كذلك؟ لا، لم ألتقِ سلمى مرة أخرى، أعطتني رقم هاتف لا يجيب. ومن المستحيل أن أعرف طريق بيتها من جديد، كما أنه من المستحيل أن يتكرر اليوم الواحد مرتين.

ثلاث ساعات قبل الرحيل

كان على أن أجده.. لم يبق أمامي سوى ساعات قبل السفر، أين أبحث عنه؟ وليس عنده هاتف في منزله، ويرفض حمل الهاتف النقال، بحجة رفضه للعولمة.

رحت أستعرض أسماء أصدقائه الذين التقيت بهم، قد يعرفون مكانه، وقفت على الرصيف، أمسكت بأجندة الأرقام، طلبت رقم فؤاد، لأسأله عن يوسف، أكد أنه لم يره منذ يومين، فكرت الاتصال بجمال، لكنني خجلت، فقد كنت أحس بالضآلة أمامه بعد كلماته الأخيرة معي، واتهامه لي بأنني تخليت عن يوسف، لأني كغيري ألهث وراء المادة.. سأتصل بنادية، لكن هاتفها مغلق، وصلت إلى نهاية الشارع وأنا أفكر كيف أجده؟

قررتُ إيقاف "تاكسي" والتوجه إلى شارع الحمراء، على أن أودعه أيضاً، وأن أجلس في مقهى "المودكا"، رغم خلوه من الزبائن في هذا الوقت.. ما إن دلفت داخل السيارة حتى تعالى رنين هاتفي الخلوي على نغمة موسيقى "حبيبتي"، لينقل

لي صوت فؤاد قائلاً: "ليلى يوسف قد يكون في ساحة الشهداء، في الاعتصام".

لم أتردد لثوان، بل طلبت من السائق أن ينعطف بي إلى ساحة الشهداء، وسوف أضاعف له الأجر.

"لا بأس"، تمتم السائق وهو يحدثني عن غلاء البنزين والأزمة الاقتصادية في البلاد.. يتكلم ويتكلم، فيما كنتُ أفكر بالطائرة التي ستنطلق في العاشرة مساءً لتنقلني إلى بلاد المانش. سأهجر شوارع بيروت العتيقة ومقاهيها التي تحتل أرصفة الشوارع، كي أمشي في الهارد بارك، وأبحث عن مقهى يقدم القهوة العربية.

- أين أبحث عنك يا يوسف؟

كيف أجدك وأنا لا أملك لك عنواناً سوى اسم شارع أخبرتني أنك تسكنه، حين حدثتني عن جارتك الساحرة "أم علي" التي يقصدها الناس من مختلف البلدان بحثاً عن حلول سحرية لأمراضهم الوهمية، حين وصلت إلى "ساحة الشهداء" وجدت جماعات من شباب وشابات معظمهم يضع الكوفية الفلسطينية، رغم انتماءاتهم المختلفة، كل شخص من

الموجودين كان يقف مع مجموعة.. أما أنا فكنت أسير وحدي بمحاذاة كل جماعة، أعبرها وأتجه نحو مجموعة أخرى، من بعيد لمحت وجه "لارا" تقف بين جماعة من الصحفيين وبعض الطلبة، بدا عليها الانهماك في الحديث والجميع يستمع إليها، أحسستُ بارتباك شديد، وخشيت أن تلمحنى، لأنها تدرك تماماً أنني لم أشارك في أي اعتصام أومظاهرة طوال حياتى، وأنها رغم هويتها اللبنانية أجدها منشغلة مع القضية الفلسطينية وتعبر بانفعال عن كل ما يجول في داخلها من آراء.. أما أنا أغلي في الداخل، بلا أي حدث يفرّغ ما يفور في أغواري السحيقة.

تحاشيت أن تلمحني "لارا" لأنها ستدرك أنني قصدت المكان بحثاً عن يوسف.. تراجعت، عدت إلى أطراف الشارع، مسيرتي بين الجموع لن تجدي نفعاً، وكأنني أيقنت أن يوسف غير موجود في هذا المكان، إذ لو كان موجودًا لابد أن يعلو صوته في هتافات متلاحقة، أوكان ليلقي محاضرة على كل هؤلاء الطلبة.

– رغبة حادة في البكاء انتابتنى، هل الله تخلى عني في رغبتي لقاء يوسف للمرة الأخيرة؟ سمعتُ أصواتاً تهمس في

أذني بأنني "أنانية" أطمع في كل شيء.. الوقت يمضى، وعلى أن أكون في البيت عند السابعة، كادت دموعي تنحدر، حائرة أين أذهب للبحث عنه؟!

لو مضت هذه الساعات بدون أن ألقاه فلن ألتقيه لسنوات، أحتاج لرؤيته، أحتاج سماع كلماته للمرة الأخيرة، يتلو على تعاليمه وإن كانت وهماً.

أعرف أنه يسكن في أحد شوارع الجامعة العربية، لكن في أي شارع تحديدًا؟ وكيف أجد المنزل وليس لدي عنوان؟ من أسأل عن "يوسف العربي" ؟ هل هذا اسمه الحقيقي الذي يعرفه به الجيران أم أنه اسم وهمي نعرفه به نحن؟ أتراه مثل والدي يغير اسمه كلما انتقلنا إلى سكن جديد مبررًا ذلك بعبارة "ضرورات أمنية" ؟! قررت التوجه إلى شارع الجامعة العربية مهما كانت النتيجة، أوقفت سيارة تاكسي وصعدت فيها.. كانت امرأة عجوز تجلس في المقعد الأمامي إلى جانب السائق الذي كان يحدثها أيضاً عن غلاء الأسعار وكيف أن الغرباء خربوا البلد، كانا يستعيدان أمجاد لبنان في السبعينات أيام الماضي السعيد، كنت أنصت إليهما، وتراودني رغبة في سؤال المرأة العجوز التي بدت لي في غاية الأناقة والحزن أترانا

نحس بالحب حينما نصل إلى هذا العمر، أم أن الشيخوخة تقتل كل المشاعر، فلا يبقى لنا سوى الإحساس بالعجز والمرض وانتظار النهاية ؟

ابتلعت سؤالي، ورحت أتابع معهما أخبار لبنان القديم، حينما وصلنا إلى شارع الجامعة العربية، خمنت معالم الشارع الذي سار فيه يوسف، يومها كنا معاً، وافترقنا عند ذاك المنعطف وهو يشير لي بيده قائلاً: "بيتي في الشارع الخلفي سوف أتمشى قليلاً، هل تأتين معي" رفضت باستخفاف، ياحماقتي..! ليتني سرت معه ذاك النهار، أما كنتُ تخلصت من ضياعي وبحثي المجنون عنه الآن ؟

واصلت السير، ثم توقفت عند دكان صغير، بدا لي قديماً وصاحبه طاعن في السن، تمتمت في سري "إذن لابد أنه يعرف جميع سكان المنطقة"، لملمت بعض ألواح الشوكولا لشرائها، بهدف السؤال، حين دفعت ثمنها وجدت نفسي أختلق حكاية وهمية عن فشل خطوبتي الذي دفعني للبحث عن بيت الساحرة "أم على".

همست لنفسي أنني إن وجدت بيت "أم علي" سوف

أجد منزل يوسف.. أستمع إلى الرجل.. وأكد أنه لا يعرف أم علي، لكنه سمع عنها، وأشار لي أن أتجه يميناً ثم يسارًا، ثم أسأل في تجمع البنايات الحديثة الموجودة في آخر الشارع.. حينما وصلت حيثما أرشدني سألت أحد البوابين، فأكد لي خلو البنايات من أي ساحرة أو بصارة أو قارئة مندل، ونصحني بالسير في شارع آخر.

– مضت علي ساعة من الوقت، وأنا أسير وأسأل وبلا فائدة، حتى أنني كدت أنسى أمر يوسف وانشغلت فعلاً في إيجاد بيت "أم علي" علها تستبصر لي أين يكون يوسف في هذه اللحظة ؟!

دفعني الإرهاق للتوقف أمام الصيدلية لأشتري حبوب البانادول، كنت قد بدأت أشعر بنوبة الصداع النصفي الذي طالما ألمّ بي عندما تضيق الدنيا في وجهي طلبت من الصيدلي كوباً من الماء لأبتلع البانادول، لكنه ابتسم معتذرًا بأن مياه الشرب مقطوعة منذ ساعتين، ومن الأفضل لي شراء زجاجة مياه معدنية من الدكان المجاور.. خرجت من الصيدلية وأنا أمسك النقود في يدى، لا أعرف لمَ خطر لي التوقف لأحصي ما تبقي معي من مال، فجأة، في لمح البصر، يد قاسية

خطفت النقود من يدي وهربت، صرختُ، وأنا أحاول اللحاق به "حرامي.. حرامي"، لكن السارق الصغير، النحيف اختفى عن نظري ولم أبصر إلا الدرب الذي سلكه.. ركضت لأمتار قليلة محاولةً تتبعه، لقد عبر الشارع وابتعد، قررت عبور الشارع واللحاق به لكن صوت زمامير السيارات علا في رأسي مدوياً، وجدت موكباً من السيارات الفاخرة تتوسطهما سيارة سوداء ذات زجاج سميك وعازل، إنه موكب لشخصية مهمة، إذن يتعذر عليّ عبور الشارع إلا بعد مرور الموكب المجهول.. أحسست بالخذلان لأنني أيقنت أن السارق ابتعد تماماً وسيتعذر على إيجاده.

الحمد لله.. إن كيس النقود لم يسرق بالكامل، ما سرق هو النقود التي أخرجتها، لكنها ليست قليلة، فحصت حقيبتي، وجدت ورقات مالية قليلة مازالت موجودة.. عدت أسيرا كالمنومة إلى دكان لأشتري زجاجة مياه معدنية، وإحساس بالجفاف يكوي حلقي وقلبي.. وأنا أشتري المياه، عدت للسؤال عن بيت أم علي، لكن البائعة أجابتني بتجهم شديد بأنها ليست من سكان المنطقة.

– خطواتي تتتالى بغير هدف وأنا أفكر عمن أسأل، عن

بيت يوسف، أم بيت أم علي ؟

غلبني إعياء شديد، وإحساس بالعجز، تجاوزتني سيارة حمراء صغيرة تسير بسرعة مرعبة، توقفت على بعد أمتارٍ قليلة، ثم نزلت منها فتاة شابة تحمل كيساً أسود كبيراً، ألقته في الحاوية ثم صعدت إلى السيارة، لتنطلق بالسرعة نفسها.

تابعت السير، أجر خطواتي الثقيلة، بعد أن سقطت عيناي على حانوت للأقمشة قررت التوقف لسؤاله، لدى عبوري حاوية القمامة توقفت، لإلقاء قنينة الماء الفارغة، سمعت بكاء حادا، ينبعث من الحاوية، ورأس طفل حديث الولادة يمتد من ذات الكيس الأسود التي ألقت به الفتاة منذ قليل، ارتجفت أطرافي، وكأنني المسؤول عن إلقاء الطفل، أسرعت بالسير قبل أن يشاهدني أحد ويتهمني بالأمر.

حينما توقفت عند زاوية حانوت الأقمشة ترددت في الدخول، وخطر لي العودة إلى البيت، عدت باندفاع وسألت البائع عن "بيت أم علي" فأجابني بترحيب وابتسامة عريضة بأنها تسكن في المبني المجاور، ثم نادى عليّ شاب صغير ليرشدني إلى المنزل، سرت مع الشاب بضعة خطوات

وانتظرت ابتعاده لأصعد وحدي، لكني وجدته يضرب على الإنترفون، ليخبر المرأة التي أجابته بأن هناك زبونة قادمة من السفر تحتاج لقاء "أم علي"، فُتح الباب الحديدي المغلق، دخلنا ثم دلف الشاب معي إلى المصعد، وضغط على زر الطابق الثالث، خطر لي سؤاله عن بيت يوسف، أو إن كان يعرفه، لكنه راح يسرد لي عجائب "أم علي" وكراماتها الغريبة، وقفت أمام باب الشقة الخشبي الكبير لثوان معدودة قبل أن يفتح الباب، لأجد نفسي أمام امرأة ضخمة الجثة، أشارت عليّ بالدخول.

وجدت نفسي على بوابة صالون فاخر من الإستيل، حيث جلس في الزاوية رجل خمسيني يضع بجانبه كيساً أسود كبيرا، يتحرك من داخله حيوان حي، وفي المقعد الواسع جلست امرأتان إحداهما شابة في الثلاثين، أما الأخرى فقد تجاوزت الستين، اقتربت للجلوس في المقعد المجاور من السيدتين.

رحت أتأمل المكان، أشم رائحة البخور النفاذة، أشياء غريبة موضوعة على الأرفف، سلاحف ميتة، أسماك متحجرة، طيور محنطة، أصداف مختلفة الحجم، أغصان يابسة، زجاجات

شفافة مليئة برمال حمراء وصفراء، وكأن الأشياء تتحرك، والأرواح تسبح في المكان، وأنا منزوية مع نفسي أجهل السبب الحقيقي لوجودي في هذا المكان، بدا لي "يوسف" في تلك اللحظات كائناً هلامياً لا يستحق كل هذا العناء.

اقتطع تناسل أفكاري صوت المرأة العجوز وهي تشكو للمرأة الشابة حكاية ترملها، وتربيتها لابنها الوحيد الذي تزوجِ وصار يهددها بإيداعها داراً للمسنين إن هي تدخلت في حياة زوجته، لذا قصدت "أم علي" لتعمل لها حجابا للعطف والقبول تحنن به قلب الابن القاسي.

بدورها راحت المرأة الشابة تشكو للسيدة المسنة كيف أنها تزوجت من سبعة أعوام، ولم ترزق بالأطفال، وقد طافت عيادات الأطباء في باريس ولندن، بلا نتيجة وبدأت تقصد المشايخ بعد يأسها من حدوث الحمل.

تذكرتُ حينها الطفل الصغير الملقى في حاوية القمامة، ماذا حدث له الآن يا ترى بعد مرور ساعة من الوقت؟ أتراه مات؟ أم أنه مازال حياً؟ هل أنقذه أحد؟ يا لتخاذلي لماذا لم أتوقف عند أقرب مركز للشرطة وأخبرهم بما رأيت؟

- لو أن يوسف عبر المكان وسمع صراخ الطفل أكان منقذه وليحدث بعدها ما يحدث؟

ارتفع صوت المرأة الخمسينية وهي توجه الحديث لي قائلة:

وأنت يا ابنتي ما قصتك ؟

رحت أردد بلا وعي: "الطفل.. هناك في حاوية القمامة يجب أن نخرجه .. لا لا يمكن".

تمتمت المرأة العجوز للصبية وهي تضرب كفاً بكف..

مسكينة لابد أنها ممسوسة.

ظهرت الخادمة التي فتحت لي الباب، استدعت الرجل، الذي غاب هو وكيسه ليخرج بعد عدة دقائق ويغادر المكان من غير الكيس.

عادت الخادمة واستدعت المرأة العجوز، فبقيت وحدي مع المرأة الشابة التي بدت منكمشة وهي تحاول ألا تنظر نحوي، لم تتأخر المرأة العجوز أكثر من عدة دقائق، لتخرج حاملة كيساً صغيراً لا يظهر ما بداخله، عادت الخادمة

لتستدعي المرأة الشابة، وتبتسم لي لتطمئنني أن دوري هو التالي، وجدت نفسي أقف فجأة وأفكر في مغادرة هذا المكان والصعود إلى الطابق الرابع للبحث عن شقة يوسف، لكن الخادمة بجثتها الضخمة، استدعتني للدخول إلى غرفة "أم علي" سرت عدة خطوات لأجد نفسي وجهاً لوجه أمام سيدة في الخمسين أوأكثر، ممتلئة الجسم تضع منديلاً على رأسها، وجهها خال من أي نوع من الأصباغ، لكن بشرتها مشدودة وتلمع ببريق من كثرة العناية والاهتمام.

أشارت على بالجلوس وهي تبتسم لي بود، وتتمتم بكلمات وأدعية لم أفهمها كلها، عادت الخادمة للظهور لتقدم لي كأساً من العصير، خشيت أن ألمسه، لكني وجدت أم علي تحثني على شربه، مؤكدة أنه ليس علي أن أخاف أبداً، أحسستُ بالاضطراب وكأنها قرأت ما

– أفكر فيه، أتراها تعرف أيضاً أنني أتيت بحثاً عن يوسف؟

– ما حكايتك يا بنتي؟

تعالى صوت أم على واثقاً مشدداً على كلمة "حكاية"

"حكـايتي"، أي حكايـة وهميـة أختلقهـا في ثـوان؟! هنـاك "خطيب سأسافر إليه ورجل آخر أحبه، وهناك.. وهناك" لا أدري مـاذا قلـت تحديـداً، لكنهـا كانـت تستمع إلى باهتمـام، ورغـم ذلـك أحسسـت أنهـا لا تصـدقني، ثم فجـأة نادت خادمتها همست في أذنها عدة كلمات، لتعود ومعها زجاجة مـن المـاء ومبخـرة مشـتعلة، راحـت أم علـي تقـرأ وتهمـس وتتمتم، لتطلب مني في النهاية أن أغتسل بهذا الماء ثم ألقيه في مكان طاهر، ثم أشارت عليّ بالانصراف.

خرجـت مـن غرفتهـا، وبيـدي زجاجـة المـاء، سـرت نحـو البـاب الخـارجي، وجـدتُ الخادمـة تقـف أمـام البـاب وتطلـب مني مبلغ عشرين دولاراً، فتحت حقيبتي أبحث عن النقود لم أكن أملك إلا أجرة السيارة.. تذكرت حادثة السرقة وهززت رأسـي نفيـاً بأنـني لا أملـك مـالا الآن، وضـعت الخادمـة يـدها على الباب مؤكدة أنني لن أخرج من هنا إن لم أدفع.. لكن عليّ المغادرة، عليّ اللحاق بطائرتي، اقترب موعد الرحيل، وضـعتُ يـدي علـى رقبـتي، تلمسـت السلسـلة الذهبيـة الـتي تضم خارطة فلسطين، تلك التي أهداني إياها يوسف في عيد ميلادي الأخير، خلعتها وأنا أسلمها للخادمة، وأتمتم "خذي

هـذه لا أملـك سـواها". خرجـت مـن البنايـة، وأنا أسـتعرض مـامر بي، أوقفـت أول سـيارة تاكسـي وأنا أردد بخيبـة "شـارع المطار".

٢٠٠٢/٩/٤

عيد ميلادي

تريدين إجراء حوار معي لا.. لا أستطيع اليوم، إنني أحتفل بعيد ميلادي هل تصدقين أنها المرة الثانية في حياتي التي أحتفل فيها بعيد ميلادي؟ المرة الأولى كانت منذ خمسين عامًا عندما كنت في العاشرة قبل أن تموت أمي، يومها عدت من المدرسة غاضبًا لأن صديقي قال لي إنه سيحتفل بعيد ميلاده، بكيت وسألت أمي عن عيد ميلادي وأمام صراخي وبكائي الشديد صنعت لي بمساعدة جارتنا قالبًا من الكيك وغنوا لي أغنية "عيد الميلاد" لإسكاتي، مع أنه لم يكن يوم ميلادي.

اليوم زوجتي الثالثة "سيلين" ذات العشرين ربيعًا، تصر أن تحتفل بعيد ميلادي، مع أنها كذبت علي يوم تزوجتها وقالت لي إن عمرها عشرون عامًا لأكتشف فيما بعد أنها في الثامنة عشرة لكن لا يهم.

– لماذا تريدين إجراء حوار معي؟ تريدين أن تعرفي لماذا أُصِرّ على دخول عالم السياسة الآن بعد الستين، رغم أنني

طبيب ناجح جدًا ورجل أعمال مشهور؟ ربما لأن المال يفرض السياسة، لا العكس، ليكن بمعلومك أن رجل الأعمال الناجح والذكي لابد وأن يسعى لاحتلال منصب سياسي هام، لأنه الأجدر بالحفاظ على مصالح البلاد، أليس كذلك؟كيف حققت هذه الثروة، والمليارات المركونة في البنوك؟ وكيف جمعت بين الطب والبزنس؟لا أدري صدقيني لم أعد أستطيع التذكر، أنت تعرفين مشاكل السن، والزهايمر لقد بدأ يعرف طريقه إلى ذاكرتي هل حكيت لكِ عن زوجتي الأولى "أمينة" لا لا.. لا تكتبي، انتظري، أريد أن أقول لكِ شيئًا مهمًا عني.. أنا لا تلفت انتباهي إلا النساء المميزات جدًا، والخارقات جدًا، والساحرات جدًا، كيف؟ سأخبرك الآن. "أمينة" كانت معي في كلية الطب لكنها كانت ترسب كل عام، ليس لأنها غبية لا.. لا "أمينة" ذكية جدًا، وإلا ما كانت خدعتني وكسبت من ورائي الملايين وأسست مركز التجميل الخاص بها.

"أمينة"

كانت شاهقة البياض وتضع روجًا أحمر فاتحًا، لكن بياضها لم يكن يعجبني، كان يعجبني امتلاء مؤخرتها ونحول

خصرها الشديد، وفوق ذلك كانت ثرية، لكن والدها خسر أمواله كلها في البورصة وأشياء أخرى. بعد تخرجي، "أمينة" هي التي ساعدتني لأحصل على أول قرض من البنك لتأسيس المستشفى الخاص بي، لكن حتى الآن لا أعرف كيف استطاعت أن تجمع كل هذه الأموال من وراء ظهري لتبدأ مشاريعها الخاصة بعد أن علمت بزواجي من طبيبة الجراحة الإفريقية "ساندي".آه "ساندي" إنها زوجتي الثانية، تعرفت إليها في إحدى السفريات، لا هي ليست إفريقية، والدها عربي أنجبها من علاقة غير شرعية مع خادمته الإفريقية، وجاءت البنت نسخة مطابقة من أمها، لذا الجميع يقول عنها "إفريقية".

تعاطفت مع حكاية ساندي، لأن قصة والدها تشبه ما حدث معي في اليونان خلال علاقتي مع المغنية القبرصية "كارمن"، هي أيضًا أنجبت مني طفلة جميلة شقراء تشبهها كثيرًا، لكنها أصرت على الاحتفاظ بها، رغم عرضي أن أحمل الطفلة معي إلى بلادي، لكنها أصرت وأنا قبلت، لأنني أنحاز للأمومة دائمًا، ألا توافقينني؟"ساندي" كانت سوداء كالمسك، سأقول لك شيئًا إنها تشبه عارضة الأزياء الشهيرة

"ناعومي كامبل"، إنها رائعة أليس كذلك؟ لا أستطيع أن أصف لك ذكاء ساندي ومهارتها في العمل، لقد تعلمت منها أن الطب مهنة خطيرة جدًا، وإنسانية جدًا يمكنني أن أجمع منها الملايين، كيف؟ لا أستطيع أن أحكي لكِ الآن، قلت لك منذ البداية إن اليوم هو عيد ميلادي وعلي الذهاب باكرًا لأن "سيلين" تنتظرني، لكن "ساندي" كانت مذهلة صدقيني، مساءً بعد أن تشرب عدة كؤوس تبكي كثيرًا وتذكر كيف كان أصدقاؤها في المدرسة يعايرونها بأنها "ابنة الزنجية". كنتُ أضمها، وأطلب منها أن لا تبكي لأنني أحبها كثيرًا. علمتني كيف أستفيد من الطب لأخدم البشرية عن طريق إنشاء عدة مستشفيات لبيع الكلى، والأعضاء الأخرى، وعلاج الناس وإنقاذهم من الموت. هل تعرفين؟ رغم انفصالنا أنا و "ساندي" إلا أنها اتصلت بي البارحة تعرض علي الدخول معها شريكًا في مستشفى جراحات تجميل اليوم الواحد، ما رأيك؟ هدفنا أن لا توجد امرأة قبيحة على وجه الأرض، ألا تلاحظين أن معظم النساء أصبحن جميلات هذه الأيام، إنها صنعة الجمال، والله جميل يحب الجمال. فكرت في الاتصال بزوجتي الأولى "أمينة" أيضًا لأعرض عليها أن تضم مركزها إلى المستشفى الذي سنقوم بإنشائه ما رأيك هل

ستقبل؟ ستكون فرصة جيدة لأستعيد أموالي التي هربتها من وراء ظهري.

"ساندي"

قالت لي إنها ستنشئ فرعًا خاصًا بالرجال، على غرار مراكز التجميل الأوروبية، لكن هذا الفرع سيلحق به قسم خاص للعناية بفحولة الرجال وإعادة حيويتهم الجنسية خلال أسبوع من الرعاية واتباع نظام صحي وغذائي معين، ما رأيك؟والانتخابات، نعم قررت ترشيح نفسي للانتخابات ومن يكون أحق مني للفوز، لقد خدمت الناس كثيرًا، وعالجتهم في المستشفيات والمستوصفات التي أملكها وقدمت لهم أدوية مجانية..كيف تجرؤين على قول ذلك؟! سيدة ماتت بانفجار الزائدة الدودية علي باب أحد مستشفياتي، من قال لكِ ذلك إنها إشاعات لا أكثر، ماذا أيضًا؟ المرأة التي لم نعطها لتراً من الدم قبل أن يدفع زوجها مبلغ التأمين، هذا هراء، و"الطفل والعجوز، و.. و.. كنتُ أعرف أنك سترهقينني، أنت تثرثرين كثيرًا. قلتُ لك إن "سيلين" تنتظرني، وأنه يوم ميلادي، هل تعرفين أن العمر الافتراضي للإنسان الآن هو ١٥٠ عامًا، وأن هناك أدوية لتجديد

الخلايا، والمحافظة على الأعضاء لتظل سليمة وعفية كما في سنوات الصبا الأولى.. أنت مثلاً بإمكانك أن تظلي شابة وجميلة كما أنتِ الآن لو حافظت على بعض القواعد الصحية والغذائية السليمة التي تضمن لكِ نضارة بشرتك، وجمال شعرك، وانسيابه. أخبريني، هل هذا لون شعرك الطبيعي أم أنه مصبوغ؟ أقصد هل هو أسود فاحم في حقيقته؟ حين تزوجت سيلين أقنعتني أن شعرها الأصفر لم يعرف الأصباغ أبدًا، لأكتشف فيما بعد أنها خدعتني هي أيضًا، تصوري لقد سمعتها تقول لأختها على الهاتف إنها لا تستطيع احتمالي، ولا تطيق أنفاسي ورغم ذلك مازلتُ احتفظ بها.أنا إنسان لم يعرف الحب يومًا، لقد ظلمتني الحياة كل نسائي طمعن بي وبما أمتلكه من أموال ولا واحدة منهن أحبتني لشخصي، مع أنني كنتُ كريمًا جدًا معهن، أنا تعيس جدًا في حياتي، ومعذب، لم أعرف السعادة والراحة أبدًا، لم أحتفل بعيد ميلادي منذ كنت في العاشرة من عمري قبل وفاة أمي بعامين، لا أعرف ماذا تريد سيلين مني اليوم؟ صحيح لقد طلبت مني أن أمر على محل المجوهرات قبل أن آتي إلى البيت، قالت لي إن مسيو چورچ يريد الكلام معي بشأن.. بشأن لا أذكر تحديدًا، لكنني لن أمر عليه.

أنا حزين الآن، وأحس بالكآبة أعرف أنها تستغلني وأنها تريد الزواج من ابن خالتها الشاب الوسيم، لكن أدوية الحفاظ على الخلايا تساعدني في الحفاظ على شبابي أيضًا أليس كذلك؟ قولي لي ألا يبدو عليّ الشباب؟ وأنت ألا تريدين الحفاظ على شبابك؟ هل أنت مرتبطة لا أرى في أصابعك خاتمًا، يبدو أنك عزباء هل تتزوجينني؟

رعشة

تحلم البنت وهي تجلس أمام الشباك أنها ستنزل للشارع. ذات يوم و تسير مع أحد ما، ربما تكون مع شاب وسيم يشتري لها الأيس كريم، ويأخذها بعيدا عن هذا الشارع. البنت وهي تتأمل عابري الطريق تحس بدغدغة خفية وخيالات كسولة لا يضاهيها كسلا إلا خروج والدتها من غرفة النوم ليلا، بجسدها المنفوش الذي يغطيه قميص نوم من الساتان الرخيص يصلح حجمه ليكون غطاء لمائدة الطعام.

تدخل أمها إلى الحمام لتستحم، يدهشها هذا الحمام الليلي الذي يتكرر مرتين أسبوعيا. منذ تركت المدرسة قبل عامين عندما كانت في الثالثة عشر من عمرها وهي لا تغادر البيت إلا برفقة أمها لزيارة جدتها البعيدة أو لاصطحاب أحد أخوتها الصغار إلى الطبيب، اعتادت البنت على غسيل الثياب كل أسبوع، وتنظيف أواني الطعام بعد كل وجبة، ومسح أرضية الحجرات بعد ذهاب أخوتها إلى المدرسة.

تجلس الأم برفقة الجارات تعد هي لهن القهوة، يهمسن بنكات وأحاديث سرية، ما أن يشاهدنها تقترب حتى يتغامزن إشارة للصمت، ما الذي كن يبحن به لبعضهن؟ تحكي إحداهن عن تأثير وصفة العسل بالجوز وإتيانها بالنتائج الفعالة، فيما تصف أخرى مفعول قميص النوم البرتقالي على قلب الرجل، أما أمها فكانت ترفع صدرها إلى الأمام وهي تهز خصرها الممتلئ لتقسم أن زوجها لا ينام الليل إن لم تكن في أحضانه، وأنه لا يقدر علي زعلها ساعة واحدة، تتبارى كل امرأة في الحديث عن هدايا الزوج وعطاياه السخية، فيما امرأة أخرى تشكك بالكلام فتذكر الأولى أنها حكت لهم هذه الحكاية الأسبوع الماضي.

تتركهن البنت غارقات في أكاذيبهن، يفتشن في الذاكرة عن أيام هوى راحل قبل أن تسمن الأجساد، تتغضن الوجوه، وتمتلئ الأرحام بالأطفال. تسرع هي إلى الشباك العريض، تجلس على حافته، يظهر الجزء العلوي من جسدها الممشوق، صدرها بارز، كتفاها مشدودان، شعرها مربوط إلى الخلف على شكل ذيل حصان، عيناها تتسعان أكثر لمراقبة كل من في الشارع.

البنت تحفظ مواعيد العشاق، ومواقيت قدومهم لرؤية محبوباتهم، تربط الوجوه بالأيام. هناك عاشق يأتي كل يوم اثنين يتمشى مدة خمس دقائق قبل أن تنزل ابنة الجيران، ليسير خلفها كما لو أنهما لا يعرفان بعضهما، فيما آخر يأتي الخميس بسيارة بيضاء يعبر الشارع مطلقا زموراً صاخبا، قبل أن تطل صاحبة الشعر الأشقر من الشرفة المجاورة، لتوافيه إلى الشارع بعد دقائق قليلة.

وجه أسمر يراقبها، يبتسم لها، يشيح بيديه كلما رآها تجلس على الشباك، تبتسم له، تتلهى عن مراقبة العشاق لتنتظر وجهه البرونزي وعيناه الخضراوان، يومئ لها أن تنزل، تهز رأسها بالنفي، تعلوه أمارات الغضب لكنه يعود في اليوم الثاني ليبتسم لها ويلوح بيديه يدعوها للنزول .. يسير نحو المبنى الذي تسكن فيه، يدخل من البوابة، تخاف أن يفتضح أمرها، أن يدق عليهم الباب، ويسأل عنها.

تسرع البنت بالنزول عبر السلالم .. تراه أمامها على الأدراج المعتمة، لأول مرة وجها لوجه.. تقلصت كتفاها، رغبة في الهرب.. يداهمها، يمسكها من كتفيها، يقبلها سريعا على وجهها ووجنتيها، ثلاث قبلات متلاحقة وسريعة.. تميد

بها رعشة غريبة، رعشة ما عرفتها من قبل، تشعل كل ما فيها.. نشوة سرية تفوق حلاوتها كل القصص التي تراها تجاوز الشباك، تعبر دغدغاتها أوهام النساء وحكاياتهن المتخيلة.. تفلت من يده، تصعد إلى فوق، تحاول الجلوس في الشباك، لكنه لا يأتي، لم يعد يأتي منذ منحها تلك الرعشة، وهي لم تعد تطيق صبرا، تريد مزيداً من الرعشات، لكنه لا يأتي لا يأتي أبدا.

تدرك البنت أنها لن تحصل بسهولة على تلك الرعشة، عرفت أيضا أنها إن تزوجت سيكون من نصيبها ربما آلاف الرعشات، هذا ما فهمته عندما استرقت السمع لأحاديث النسوة.

عندما طرق بابها أول طارق، وافقت بفرح، لم تكن تعرفه، ولم يكن يعرفها، وافقت لأنهم قالوا إن هذا هو الطريق الوحيد للرعشة المسموحة، لكن البنت بعد انتقالها للحياة هناك، وبعد أيام وأعوام، مازالت تجلس قرب شباك آخر، تنظر إلى الشارع، وتتساءل لماذا لم تحصل على تلك الرعشة مرة أخرى؟

اعتراف

حسنا يا "لنا"..

ها أنا أفاجئك من جديد بما كنت تخشينه، أبين في عالمك مرة أخرى لأكشف الحقائق وأعلن أمام الجميع أنني مازلت حية، متمردة على علب الصفيح الأسود التي عبأتني فيها لتلقين بي إلى البحر عبر حبل كلماتك الذي ربطتني فيه حتى حين.

أنا هنا الآن لأصرح أمام جميع من قرأ قصتك وأقول: "إنك كاذبة" وإنني لم أمت، وإنك لفقت حكاية موتي في بدعة درامية لنهاية قصة قصيرة لم تعطها كل الأبعاد، ولم تكشفي فيها كل الحقائق كنت جاسوسة متنكرة لكنني لم أشك أنك ستسرقين عوالمنا لتخبئيها في جيوبك السرية، فيما ظل عالمك قصياً عنا، توهميننا أنه دان لكنك أبداً، ما كنت بتلك السذاجة وما ظننت أننا بذاك الوضوح الذي يدفعك لكتابة قصصنا، بحيل متنوعة وبخفة عاشق متلهف، كنت تعرين ذاكرتي، لتكتشفي ألوانا مجهولة وثيابا من أقمشة لم

تكتشف بعد، تغطي أكثر أحزاني حميمية والتصاقا بالماضي.

ظهرت في حياتي فجأة ثم اختفيت ثم عدت قائلة إنك ستسافرين وحين أبديت دهشتي قلت إنك ستتزوجين وتغادرين إلى مصر، حدقت في وجهك لثوان ما كنت لأصدق كلماتك. ظننتك تمزحين، لكن وجهك بدا هادئا وخاليا من قلق المسافرين.

لا أعرف كيف صدقتك حين قلت لي مرة إنك لا تفكرين بالزواج وأنك لا تستطيعين مغادرة بيروت، لأنك وبيروت مثل السمك والبحر المتوسط.. حتي في هذه العبارة كنت تكذبين علي لإيهامي أنك باقية هنا، وأن بوحي لك لن ينتهي ورغم ما كان في ذاك البوح من سلوي بالنسبة لي ومن مراوغة ممتعة في زيادة الحكايا ونقصانها إلا أنني لم أخمن أبداً أنا أجد نفسي ميتة بين دفتي كتابك في قصة سميتها "مرايا مكسورة" وصديقنا المشترك "وائل" الذي كان سبب تعارفنا كيف وثق بك ليحكي لك حكاية حبه الضائع لتضعيها في حكاية تسميها "ضريح لرماد الذاكرة" لم يسلم من خيانتك أحد منا، نحن الذين ائتمناك على أوجاعنا ومسراتنا بدون أن يخطر لنا من أنك ستتخذين منا لعبة تشبه

معجون الأطفال تشكلينه على هواك، حتى تلك الطفلة المسكينة "موحا" التي حكيت لك قصتها وجدتها تركض على أوراقك تتعثر بدمها النازف على الأسفلت.

عبثا رحت أبحث عن ملامحك في كتابك، لكنني آسفة أعترف الآن أنني لم أعرفك جيدا، كما لم تعرفيني لذا لم أتمكن من إيجادك كما لم تتمكني أنت من اختيار نهاية حقيقية لحياتي تقنع قارئك.

هل حدث أن واجهك أحد قبلي بكل هذه الحقائق؟ وهل حدث أن تمرد على سطوة اختياراتك غيري أنا الفتاة العنيدة التي سرقت من حياتها شطرا بنيت عليه أوهامك. ربما لو قرأ وائل ما كتبته عنه لصرخ في وجهك أيضاً "إنك كاذبة "وإن الحكاية لم تحدث أبدا كما كتبتها، ولقال إنك مخلوقة ضبابية عدمية، مشكلة من وهم، لك جسد حي يحاول حصر روحك الشاردة دائما في أفق آخر تعرفينه وحدك، لكن "وائل" ليس هنا، لقد غادر إلى السويد متسللاً بعد يأسه من الحصول علي إقامة شرعية في لبنان، واستحالة عودته إلى العراق. أين هو الآن؟ وهل من المعقول أنه رجع بعد دخول أمريكا للعراق؟

هل تذكرين "وائل" وكيف بكي يوم قُتِل الأطفال في ملجأ العامرية؟ لماذا تنكرت لدموعه التي سالت أمامك يوماً، واكتفيت بفضح ما لا يصدق عنه، يومها قال لك إنها حكاية قديمة حدثت له بعد رجوعه من حرب إيران، لكن ربما غاب عنه مطالبتك بصك أمان أبدي لسكتة قلمية.

لماذا بدأت حكايتي بجملة تصفهم؟ لمَ لم تبدئي من حكايتنا معا؟ لِمَّ لم تبدئي من أمسي أولاً؟ كان بإمكانك أيضا البدء بهذه الحبكة المأخوذة من واقعنا معا فتقولي: "في شهر مارس الذي تعتبرينه شهرنا المشترك لأننا ولدنا في ثالث أيامه، كنت أسير معها على شاطئ المنارة، في يدها كتاب شعر لمحمود درويش تقرأ لي مقاطع منه. حينما نجلس على المقعد الحجري لنشرب الكابتشينو الساخن في أكواب بلاستيكية ،نغم صوتها يتكسر مع الأمواج في لثغها لحرف الراء قائلة:

"لماذا نحاول هذا السفر

وقد جردتني من البحر عيناك؟

واشتعل الرمل فينا

والكلمات التي لم تقلها تشردنا

لماذا نحاول هذا السفر

وكل البلاد مرايا وكل المرايا حجر؟"

بعدها كانت تشرد عيناها بالبحر الأزرق وتبدأ في سرد حكايتها منذ غيابه.

لماذا لم تختاري هذه البداية وتحكي عن مشوارنا الأسبوعي على الشاطئ حين اتفقنا على لقاء الأحد لأنه يوم عطلتنا الذي بإمكاننا قضاء ساعات الصباح الأولى منه للاستمتاع برحيق المتوسط ومراقبة محبيه من شبان وعجائز.

ألا تذكرين كم من المصادفات والذكريات الحلوة حدثت معنا؟ لكنك لم تذكري إلا البحر الذي رأيت فيه مكانا مناسبا لدفني. لكن دعك من هذه البداية الرومانسية إذ ربما كان بإمكانك تقمصي للقول عبري بواقعية: منذ رحيله صار أقاربنا يعتبروننا كائنات فطرية يحسنون إليهم ببعض المال في الأعياد والمناسبات السعيدة حتما لم يكن ذلك ليكفي ثلاثة أفواه وأم همها الوحيد استكمال تعليمنا في ظن قطعي أن الشهادة الجامعية سلاح أكيد ضد الجوع والفقر بدون أن تدرك أن الشهادات الجامعية لا تؤمن لحامليها ثمن الخبز، لذا

ظلت تعيش في زمن السبعينات وظللنا أنا وهي نصنع الحلوى ونبيعها لأصحاب المعامل وكلما رفضوا شراءها أذهب إليهم لإقناعهم بجودتها فيشترون حلوى.

لم يكن بإمكاني تركهم جوعى، ولا ترك أصغرنا تهدده "التلسيميا" كل أسبوع، وأمه تدوخ على أبواب وزارة الصحة والجمعيات الخيرية تطلب معونة. لم يكن بإمكاني كسر حلمها وحلمه قبل موته بأن يراني طبيبة.

لا بأس لو أنك أدخلت مسحة سريالية لتضفي على النص أبعاداً متخيلة فتقولي عبري أيضا "رأيت أمامي وحوشا آدمية فقدت مسحتها البشرية وتحولت إلى مسوخ شيطانية لزجة دبقة لا يمكن مسح ما يعلق منها بسهولة من هنا بالضبط كانت بداية كل ما فعلت، حيث علقت المسوخ بي، وبدوري صرت أتحول وأتحول".

لا أعرف يا "لنا" لِمَّ لم تجملي النص أبدا وأخذت من الحكاية ربعها الأخير، ولم تحكي عن العرافة التي التقينا بها على الشاطئ وتنبأت لي أنني سأصبح ثرية، وقالت لك إنك ستسافرين كثيرا وإنك ستكذبين بالحكايا، لكنك ستظلين

منزهة عن أي غرض إلا أوهامك، فعلا وقع هذا ،وها أنا الآن ثرية أستمتع بكل ما لدي من مال، هل تعرفين أنه بإمكاني شراء كل كتبك والاحتفاظ بها أو حرقها، فقط لأؤكد لك أنني لم أمت وأنني أكتب إليك من عالم الأحياء.

لكن كيف وصفتك العرافة بأنك منزهة عن أي غرض؟ يا لقدرتها على قراءة باطنك. أما أنت فقد سخرت منها بأنها تقول هذا الكلام لكل الناس، لكني وحدي أيقنت أنك منزهة حتى عن غرض الاستماع للحكايا، تنصتين بإصغاء لكنك تدَّعين اللامبالاة، وتبدعين حكاياك تاركة الآخر يبحر في محيطه الخاص ليعود لك باللآلئ فيما أنت تحلمين ببراءة تحت مظلة شاطئك. لكن لماذا لم تتحدثي عنه؟ لماذا لم تكشفي مذكراته التي أعطيتها لك؟ هو أبي ورفاقه المناضلون، لماذا حكيت حكايتي أنا ولم تقولي أنه كان يحلم بالعدالة، وبتشكيل وطن عربي جديد لا يحمل تأشيرات حزن تفرض فراق أبنائه أو قتلهم بمقصلة الغربة.

كان يتوارى من شبح الفقر في معمله الصغير، يصنع قوالبه صباحا، يبيعها ويقبض ثمنها ليفر مساءً إلى جلساته السرية في العمل السياسي. بالنسبة له كانت متعة خفية،

عشيقة سرية لا يستطيع الاستغناء عنها أبداً إلى أن قتله هواها.

آمنت بعد غيابه بسنوات أن مجتمعنا ينظر للمرأة الوحيدة على أنها مكسورة الجناح، وللفتاة على أنها صيد سهل قال لي ابن أخيه الذي أحبني ونحن أطفال إنه لن يستطيع الزواج مني لأنني مسئولة عن أمي وأخوتي، وإنه يريد زوجة تتفرغ له وحده. أما زميلي في كلية الطب صاحب الوجه الذي يشبه الفقمة، فقد بكى بعد زيارتنا هو ووالدته وقال لي إن أهله سيفرقون بيننا لأنهم عرفوا "أنني مش من عيلة" أي لست ثرية.

طبعا هو لم يقلها لي كذلك، لكني أحكي لك خلاصة ما غاب عنك، ذاك الغبي كان يظنني ثرية لأنني كنت أستأجر ملابس من جارتنا التي تعمل في محل للألبسة وأعيدها بلا معرفة صاحب المحل. كنت أرتدي أفخر ماركات الألبسة مانغو، زارا ،كوتشي، لكنني كنت أقع في مشكلة الأحذية والحقائب لذا أتحايل في تبديلها باستمرار.

أكتب لك كل هذه التفاصيل الآن لأوكد لك أنك كاتبة

عادية، وأن مخيلتك لن تأتي على كل حكايتي فمازال لدي الكثير مما لن تعرفيه أبداً، لأني لم أقدم لك إلا طعما دسما مفتاحا لوجبة شهية مدركة تماماً رغبتك في كشف عالمي الغريب عنك. منذ اللحظة الأولى التي التقينا بها في بهو الجامعة الأمريكية وعرفني بك وائل على أنك صحفية وكاتبة، وقدمني لك على أنني أدرس الطب في سنتي الأخيرة وهاوية للشعر وأسكن في ضاحية بيروت الجنوبية، تخيلت أنه لمع في عينيك تساؤل عني وكأنك تكشفين تناقضي.

لكن بعدها صرنا صديقتين وجئت لزيارتي في بيتنا القديم. حكيت لك الكثير عني، وعن "فادية" رفيقتي التي لا أستغرب وجود حكايتها في مجموعة قصص أخرى تقومين بكتابتها، وعن مدير المستشفى العجوز المتصابي المغرم بالشابات، ألقيت حكايا في جعبتك بلا ظن أنها ستصل بأصحابها إلى خطر الموت أو الجنون أو الهوس حبا ولم أعرف أنك تكتبين لتنسي وتتواري خلف ذاكرة مستعارة.

لكنك لن تطمئني أبداً، ستحيين في قلق بلا نهاية. أنا مازلت أحيا لمواجهتك، لكشفك أمام الناس أنا هنا لأقول لك إنني الآن طبيبة مشهورة، وفتاة ثرية، عيادتي قريبة من

الشاطئ الذي كنا نسير عليه يوماً، عمي قال لي منذ أيام إنه اختار لي عريسا قادماً من أمريكا، طبيباً مثلي يريد زوجة من وطنه، فتاة محافظة يكَوِّن معها عائلة، وأنا لم أقل شيئا لأنني مازلت أحس باللزوجة التي تعلو داخلي، أحتاج للاغتسال بماء البحر، لذا سأبقى هنا أنتظر موتي على الحافة خشية أن تبتلعني الأمواج لو حاولت الاغتسال فأترك لك أملا تصدق فيه نبوءاتك.

الكنار مازال يغرد

استيقظت عقب أذان الفجر لتكمل أعمالها، العيد سيحل بعد يومين عليها أن تنظف جميع حجرات الفيلا وأن تجمع الستائر لتغسلها وتعلقها من جديد أيضاً، يجب أن تشارك سيدتها في صناعة الكعك. ارتفع صوت فوزية الخادمة الكبيرة، تنادي عليها بكلماتها المعتادة:

– موحا، يا كسولة، أما زلت نائمة وأنا بدأت العمل، قومي نظفي الجنينة، ورشي الماء على الزرع، واجمعي الأوراق الذابلة.

الطقس بارد في الخارج والهواء محمل بالمطر والرياح، عندما قامت موحا إلى الحمام بشعرها المنكوش وثيابها القطنية الخفيفة، لم تغسل وجهها بل أخذت "الدلو" المخصص للجنينة فملأته بالماء، وحملته مع المقشة ومقص العشب.

كانت تسير ببطء لا يتلاءم مع سنواتها الثلاثة عشرة تجر معها آلام الروماتيزم الذي بدأ ينخر عظامها باكراً، هناك وجع آخر في أسفل بطنها جعلها تتلوى وتضغط أحشاءها إلى الداخل، لكنها لا تجرؤ على الكلام أبداً. عليها أن تنتهي من تنظيف الجنينة كي تغسل سيارة ابن سيدها لقد أوصاها بغسلها البارحة حينما رجع متأخراً ليلة أمس.

كانت تغسل الصحون، وتضع الصابون على أرضية المطبخ كي تشطفه، فتح الباب بمفتاحه ودخل، جميع أفراد العائلة ناموا، السيدة الكبيرة تدخل إلى سريرها في العاشرة مساء، وقد سمعت "موحا" أنها تفعل ذلك كي تحافظ على نضارة وجهها. أما أختاها "سارة وسلمى" فقد استسلمتا للنوم باكراً بعد أن طافتا طيلة النهار على المحلات لاستكمال الحاجات الخاصة بزفاف سارة.

تقدم ابن سيدها إلى المطبخ، داس بقدميه الموحلتين على البلاط الغارق بالماء والصابون فظهرت بقعة بنية اللون من الوحل، فتح الثلاجة أخذ زجاجة من البيرة وهو ينظر إلى موحا ويقول:

- ألم تنتهي من عملك بعد يا عرجاء. أجابته بخوف.

- لا يا سيدي بعد قليل سأنتهي.

اقترب منها، أمسكها من ذراعها، ويده الأخرى تقرص صدرها، ثم راح يتفوه بكلماته التي حفظتها موحا دون أن تدرك مغزاها:

- انتهي من عملك يا وسخة، قذرة كوالدتك التي تركتك على باب الكنيسة.

رددت موحا كلماتها جملتها الوحيدة.

- حاضر يا سيدي أمرك.

- هيا انتهي، عليك أن تغسلي سيارتي صباحاً، يجب أن تكون نظيفة قبل طلوع الصبح.

- تمتمت.

- أمرك.

برد الليل كان ينخر عظم ساقيها، وقدماها سابحتان في الماء البارد الذي يملأ الأرضية انتهت من غسل الصحون، ثم

بدأت تجفف الأرضية. حينما أتمت عملها، سارت إلى غرفة الخدم التي تقطنها مع "فوزية" "وهند" عبرت الممر المعتم لتصل إلى الحجرة الكئيبة استوقفتها يد قاسية، أمسك بها من شعرها وهو يقول:

– انتهيت إذن، هيا إلى حجرتي لتمسحي أحذيتي.

سارت وراءه خائفة بلا أية كلمة سوى "أمرك سيدي" حينما دخلا، أغلق الباب وراءه ودفعها إلى السرير أبعد سروالها القطني المتسخ، نزع رداءها الداخلي ثم أولج عضوه فيها بسرعة ولم تستطع الصراخ، لأنها خافت أن يضربها وأن يستيقظ كل من في البيت. قام عنها وهو يصيح – هيا اخرجي من هنا.

ذهبت إلى حجره الخدم، ألقت جسدها على الفراش الصغير، لم تذهب إلى الحمام للاغتسال ولم تبصر نقط الدم الحمراء التي صبغت سروالها الداخلي.

صباحاً وهي تنظف الجنينة، شلتها الآلام الحادة أسفل بطنها، ودفعها السائل الساخن لترك الدلو والمكنسة والذهاب إلى الحمام لإزالته، بقع من الدماء كانت تلوث

ملابسها لم تدر سببها، هل الجرح الذي سببه لها سيدها البارحة؟

استمرت الدماء لعدة أيام وموحا تفكر أن تحكي للخادمة الكبيرة لكنها خشيت أن يضربها ابن سيدها، إن تفوهت بالأمر كانت تسرق أوراق الجرائد التي يرميها سيدها والمناديل الورقية الموضوعة في الصالون، كي تحشي بها سروالها الداخلي لمنع تسلل الدماء.

موحا لا تعرف من هو أبوها؟، ومن هي وأمها، كل ما تذكره عن طفولتها، أنها كانت عند امرأة من نساء القرية، سمعت أنها أخذتها من خوري الكنيسة لتربيها مع أولادها، لكن بعد أن مات زوجها صارت "موحا" عبئاً عليها، فنصحها الجيران أن تضعها عند إحدى العائلات الثرية في المدينة كي تتخلص من إعالتها، إذ لم تكن تلك المرأة تملك النقود لتربي أولادها، فمن أين لها تربية فتاة وجدت على باب الكنيسة، تذكر "موحا" أنها كانت في السادسة أو السابعة عندما جاءت أول مرة إلى بيت "سيدها"، وأن تلك المرأة التي ربتها حتى هذا العمر احتضنتها للمرة الأخيرة وهي تبكي وتقول: "ما كنت لأتركك"، يومها سحبتها الخادمة

فوزية من يدها إلى داخل غرفة الخدم، وألقت في يد المرأة بعض الورقات المالية.

منذ ذاك اليوم صارت موحا متخصصة لخدمة بنات سيدها، وفي حال غيابهن تنزل إلى المطبخ لتتعلم سائر الأعمال المنزلية.

جميع من في المنزل كان يعامل موحا على أنها حشرة بلا فائدة، ما عدا سيدتها "سلمى" لم تكن لتكبرها إلا بسنتين، لذا كانت تعطف عليها في بداية قدومها إلى المنزل، كانت تحدثها عن مدرستها والأساتذة والمعلمات، ومرة فكرت في تعليمها القراءة واستطاعت موحا أن تميز الأحرف وتكتب اسمها، لكن حينما لاحظت الأخت الكبرى تعلق سلمى بموحا، مُنعت موحا من التخصص في خدمة الفتاتين، وانتقل عملها إلى المطبخ لكنها لا تدري لماذا ابن سيدها دائماً ويصر أن يكيل لها السباب والشتائم، منذ قدومها في اليوم الأول إلى البيت، تذكر يومها أنها رأته يأخذ النقود من حقيبة أمة، وحين اتهمت الأم الخادمة الصغيرة، صرخت موحا بأنها شاهدت ذاك الشاب يفتح الحقيبة ويأخذ النقود، ولم تكن لتعرف أنه الابن الأكبر.

موحا تدرك أنها تعيش لتخدم كل من في البيت، وكل ما تتمناه أن يمر نهارها من دون أن يضربها أحد، أو تعاقب وتنام في القبو المعتم، لذا تحولت مع الأيام إلى كائن صامت، لا يشكو أبداً ولا يتكلم، إنها لا تتحدث إلا مع "الكنار" الصغير الذي اشترته "سلمى" تحكي له في الصباح عما ينتظرها من عمل، وتطلب منه أن يغرد لسيدتها "سلمى" ويخبرها أن موحا تحبها كثيراً.

عندما كانت في التاسعة من عمرها وقعت عن السلم الخشبي حين كانت تغسل الشباك الزجاجي، وأدى ذلك لحدوث عرج طفيف في ساقها اليسرى، بسبب تأخرها في العلاج، وإهمالها للتمزق الذي طال الأنسجة، ولم ينتبه أحد إلى حالتها إلا بعد ذلك بأيام حين تضخمت القدم وصارت موحا عاجزة عن السير، وبعد تلك الحادثة صار "ابن سيدها" يضيف إلى شتائمه السابقة كلمة "العرجاء".

في هذا الصباح الذي داهمتها فيه آلام أسفل البطن، بعد ذاك الجرح الذي سببه لها "ابن سيدها" استدعتها سيدتها "سلمى" كانت موحا توشك على إخبارها عن الدماء التي تسيل من داخلها لكنها صمتت وخافت أن تدخل "سارة"

إلى الغرفة وتلمحهما يتكلمان معاً، فيؤدي ذلك إلى عقابها بالمبيت في القبو. طلبت منها "سلمى" أن تأخذ الكنار وتذهب به إلى صديقتها "اسمهان" التي تسكن في الشارع المقابل، لأنها قررت أن تستبدل الكنار "بطيور الحب" الملونة.

أحست موحا بغصة شديدة حينما أدركت أنها ستفارق الكنار، وكادت تقول: "اتركيه لي". لكن من أين لها الحق بالكلام؟

حملت موحا القفص الذي يسكن فيه الكنار الصغير، وخرجت من الفيلا، لتسير إلى بيت أسمهان، كانت حزينة، دموعها تسيل بغزارة، والطريق الأسفلتي البارد يشعرها بالتزحلق وهي تسير عليه.

عبرت من أمامها سيارة مسرعة، دفعتها أرضاً، ورشقت كل ثيابها بالمياه الموحلة، القفص الصغير لم يعد في يدها، حاولت القيام بعد أن تجاوزها السائق بلا اهتمام لكن ساقيها لم تطاوعنها على الحركة، أرادت الصراخ، صوتها أيضاً بدا مخنوقاً، نظرت إلى الرصيف، كان قفص الكنار مقلوباً، لكنه بعيدا عنها، لم تستطع أن تميز إن كان الطائر في داخله أم لا.

أحست بيد صغيرة ترفعها عن الأرض، إنه صبي في مثل سنها تقريباً، ساعدها على الوقوف، وهو يقول مشيراً إلى أحد الدكاكين تعالى لتنظيف ثيابك، دكان أبي هنا، كانت تنظر إليه بخوف، وتردد، ثم صرخت.

الكنار الكنار..

سارت نحو القفص وسار الصبي معها بسرعة، هتفت بفرح وهي ترفع القفص الخشبي الكنار مازال حياً، مازال حياً، حينها نظرت إلى وجه الصبي، بدا لها حلو الملامح، سألته من أنت؟

قال: – أنا كريم ابن صاحب الدكان، تعالى لتغسلي يديك عندنا، أبي رجل طيب. رافقته موحا وهي تمسك القفص بفرح، استقبلها الرجل بابتسامة وهو يطلب منها أن تدخل إلى الحمام لتغسل يديها وتمسح الوحل عن ثيابها، ثم علق بأنه شاهد السيارة وهي تتجاوزها باندفاع وتوقعها على الأرض.

حينما خرجت من الحمام قال لها الصبي الصغير:

– ما اسمك؟

- موحا

- وماذا يعني موحا؟

سألها وهو يبتسم ويرفع صوته سائلاً أبيه:

- بابا تقول إن اسمها موحا، ماذا يعني "موحا"؟ خجل الأب لعدم معرفته الأجابة فقال، أسأل معلميك.

كانت موحا تمسك القفص وتستعد للابتعاد، وكريم يقول لها: غداً سأسأل المعلمة عن معنى اسمك، عودي مرة أخرى لأخبرك بالإجابة، ابتسمت له وهي تقول: سأعود "إن استطعت ذلك".

سارت وهي تضم القفص إلى صدرها لتتابع نحو بيت أسمهان وهي تفكر: ماذا تعني موحا؟

٢٠٠٢/٢١/٣٠

سفر

عبرت ذاك الخط المتأرجح بين اليقظة والسبات، فتحت عيني ببطء ليطالعني ضوء نهار صاخب والشمس لا تكتفي أبداً من تسلق البشر.. دخلت إلى الغرفة.

"ماري".. استيقظي، حبيبتي.. كنت بكامل وعيي.. أفتح عيوني بشدة ومع هذا أمي لم تريني، بل هزت جسدي كي أستيقظ.. حاولت أن أقول شيئا لكن جسدي لم يطاوعني.. ولا أدرى سببا..

"ماري" – ما بك حبيبتي .. لايزال صوت أمي يرتفع، ويصدح في محاولة لإيقاظي، وأنا أجاهد كي أنبئها بيقظتي – لكن لا أعرف – أشعر بأني حرة.. ولكني مكبلة.

– "فؤاد" تعال وانظر إلى ماري.

صوت أمي استحال صراخاً. وجهها الأبيض صار ممتقعاً بارداً كالثلج. يهرع والدي بشعره المنكوش وبيجامته الرمادية

الشاحبة، دون أن يغسل وجهه.

- ما بك يا جيزيل لماذا تصرخين؟!

أبي يعبر بخطواته نحوي، ويحدث أمي محاولا نشر الهدوء، أنظر إلى الغرفة والدي يفحص جسدي، لا أعرف لأول مرة ألاحظ أني أرى جسدي، صحيح أنا أرى الغرفة وجسدي والسرير وأمي وأبي.. كما لو كنت أشاهد فيلما.. لكن كيف.. أنا هنا وأرى جسدي هناك؟ من أنا؟ أين أنا؟

أمي بدأت تنتحب، وجه أبي بدأ يغدو شاحبا، وهو يمد يدي ليقيس نبضي يضع رأسه على صدري ليصغى إلى دقات قلبي.. صحيح أنا لاأسمع دقات لقلبي ـ غريب..

– دكتور.. ينطق أبي بصعوبة.. أحببت أن أطمئنه علي.. لكنني لم أستطع – هناك شيء يمنعني من إيصال كلماتي لنطقها.. لكن مع هذا لا أشعر بالانزعاج.. أمي بدأت بالنواح ولم أفهم لماذا؟ ثم انهالت على جسدي بالقبل وبدأت تضمني وتصرخ بي أن أعود.. لا أفهم.. كيف أشرح لها أني كا زلت هنا ؟! صراخ أمي يعلو.. وانفعالاتها تتزايد وأبي يتحرك بسرعة للخارج مع أنني أحب أمي إلا أني غير

مهتمة بصراخها.. لأول مرة لا أتعاطف مع دموعها . أوحزنها أحسست أني هادئة بلا انفعال، لا أعرف كم مر من الوقت.. عاد أبي ومعه رجل غريب.. وضع سماعة على صدري، قاس نبضي من يدي.. ثم نظر إلى والدي بأسف: متأسف العوض بسلامتكم.

العوض بسلامتكم، كدت أضحك، لكنني لم أفعل .. العوض بسلامتكم تستعمل للحديث عن ميت، ميت من ميت؟ هنا في هذا البيت ميت؟ لا أرى أي أموات، في هذا البيت نعيش ثلاثتنا أنا وأمي وأبي، وأنا أرى ثلاثتنا أمامي أمي وأبي وأنا.. لكن مهلاً.. أرى ثلاثتنا.. ثلاثتنا كيف أستطيع أن أرى نفسي لا أفهم..

- "فؤاد" البنت ماتت.. يا "فؤاد".

أمي تصرخ وتولول، انهارت على السرير وأبي يبعدها ويهدئها.. وأنا لا أستطيع التدخل لتهدئتها.. مع أنني أتمنى لكن لم يمض وقت طويل حتى عمت المكان فوضى عارمة، غرفتي الهادئة، الوادعة أصبحت مغزوة، كالسوق من القادمين والذاهبين .. جيران أقارب لا أفهم لمَ كل هذا الكم

من الناس يتحلقون حول جسدي النائم ويشاركون أمي بكاءها ويهدئونها.. لا أفهم.. عندما أستيقظ من سباتي سأنهر أمي وأطرد هؤلاء إنهم يوسخون غرفتي وذاك الصبي هناك ينزع اللوحة التي على الحائط.. آه وتلك السيدة الضخمة . جارتنا . داست فوق شريط CD يأتي بالموسيقى.. آه كم جميلة هي معزوفة **Deliveranee** .

غريب أحاول أن أصرخ بأمي أن تطرد هؤلاء المخربين من غرفتي.. إنهم يعيثون بها فساداً. أخيراً يشفق أبي عليّ.. ويقرر نقلي إلى غرفة أخرى ولاتزال نفس الوجوه ونفس الدموع والأصوات تتكرر ومع هذا أنا لا أشعر بشيء.. جارتي "إيلين" تتحدث وهي ترسم شارة الصليب على صدرها..

يا أبونا.. كيف راحت.. كأنها طير صغير عصفور.. "كم عمرها؟! أمي "تلعلع" من بعيد..

الآن بدأت أستوعب هذه التي رحلت لربما تكون أنا.. لكن كيف رحلت.. ثم أنا حسبما فهمت – رحلت يعني مت، كيف أكون ميتة وأنا أفكر.. المعادلة المشهورة تقول:

"أنا أفكر إذن أنا موجود، وابن سينا كما أعرف يقول إن الإنسان يدرك وجوده قبل أي شيء.. يعني الإنسان الحي.. وأنا أدرك وأفكر وأحلل.. وهؤلاء الأغبياء يقولون مت.. كيف مت؟ وأنا لا أزال هنا . أحاول الصراخ فيهم لا جدوى، أحاول الاقتراب منهم، لكن أبداً كما لو أني ملتصقة بمكاني، أرى لكن لا أستطيع التفاعل، ربما مازلت نائمة.. ربما أحاول الصراخ.. التحرك.. لكن لا جدوى ومع هذا لا أشعر بالملل.

غريب.. أنا لا أحس بشيء.. لا أحس بأي شيء البتة.. أتراني لا أزال نائمة.. ربما.. ربما.

عشق أباد

إهداء: إلى غالية ضاهر لأن بوابات العشق موحدة

غفت في تلك المدينة البعيدة، ذبلت وهي تبحث عنهم، أين هم؟ رحلوا بعيداً، مضى عليها آلاف السنين هنا، تنتظر. شابت خطاها، ترجوهم البقاء لكنهم يرحلون في كل مرة عنها، بعد أن يلقوا بفتوحاتهم فيها .كم أوهموها بنصرهم، تنخدع، وتعود لتصدق، هي بلاد العشق التي أمها الجميع، وركعوا عند قدميها يطلبون عشقا صافيا كخيالاتها عنهم، يتذوقون رحيق الغيث الأول وتغمرهم نشوة لا يقدرون على احتمالها، فيرحلون.

"لن أبحث عنهم، لن أجوب طرقات العالم أبحث عن وجه أعرفه ليحتضن نهايتي لن أغسل عيني بشفقتهم، كلهم عرفوني، وما عرفتهم أبداً. في المرة الأولى، أتي إلي قائلاً إنه سيسكنني لأنني عشق بلا حدود، بعدها غادر بعيدا أبعد مما أبصر".

لن تصلح هذا العالم الفاسد، ولن تنجح بتمزيق كل حجب الوهم والوصول إلى يقين مطلق، مازالت أسربة خيالاتهم تلوح من بعيد كغلالة من الشفق، عبثا تحاول الوصول، لكنهم يرحلون.

"قال لي: ليس مني، خذيه، ارميه، اذهبي عني بعيداً وألقيه في بحيرة التماسيح، أمامي كثيرٌ من الغزوات والفتوحات والانتصارات ربما لن أرجع أبداً إلى هذه الأرض، إنها لا تصلح إلا للعشق، والعشق نهايته الموت، ولا أريد أن أموت. حملته وليداً بين ذراعي لففت ذراعه بتميمة عشقي ووضعته هناك حيث ينام الصغار، ويلعبون، ويأكلون ويحملون أسماءً غير أسمائهم الحقيقية."

تحاول إدراك حكي الأماني لكنها كطفل صغير تعارك أشباح السراب، وولع يبحث عن الأكثر، عبثا لا تجد فينتهي الكلام، وينذوي الشغف لأنها لم تعرف أبداً حجم البحر ولم تدرك بعد السماء.

"انتظرت كل مواعيد الأرض، والقطارات الآتية من بعيد عساهم يعودون، لكهنم لا يذكرونني أبداً، كم كانوا ينتظرون

على بابي ليلاً وعند الفجر يمسحون أعينهم بالهرب مني ونسيان ما يخشون تذكره.

من خلف الأسوار كنت أرقبه، هانئاً كملاك، غافلا لا يدري أبداً خفايا علقم العشق وسواده قالوا:" إن رجلا ثريا تبناه سيأخذه ويرحل بعيدا "من يومها عرفت أنني لن أبصره ثانية، ولن أسمع ضحكات عينيه وأرى فراشات شعره الأشقر.

" تنادي في مواسم النيروز، ربما يعودها أحدهم، مازال قلبها أخضر، وتحلم بأن يسكنه عاشق ينذر لها شمعة كل مساء ويشعل نجومها فرحاً. لم تيأس لأنها أرض العشق التي لا تنتهي ولم تكتشف بعد كل مجاهلها.

"وجهه يشبه فرسان الحكايا، بدا آتيا لتوه من أزمنة الحنين.. أنا متعب خذيني إليك أحتاج أن أغفو قليلا وأنسى من أين جئت، أنهكتني الحروب والمعارك، أتعبتني منازلة الموت، أريد أن أحيا، أن أقبض على الذهب بين ذراعي، وأنام على حرير سخي، وأركض في قصوري وجناتي، و أريد أن أسمع رنين أساورك في أذني ليلاً."

أرادت أن تسأله إن كان صادف في أسفاره صبياً ورجلا ثرياً يرحلان معاً من بلد إلى بلد، ويطوفان الدنيا التي لا تعرفها، لكنها صمتت، لم تقل له إن فيها جنات لم تكتشف بعد وأن عليه البقاء معها ليرى، نام في ذراعيها متعباً، وعند الفجر لملم كل عدته وعتاده ورحل.

لم أبصر وجهه بعد تلك الغفوات، أوسمته ونياشينه المعلقة على أشجار بيتي نزعها قبل مغادرته، هل فطن أنني سأبوح له بأن هناك ما يدغدغ أحشائي، فأسرع هارباً، أي نوة عشق تعصف بي فتلقي ببذوري إلى المجهول.

من أين تأتي بكل هذا الأمل؟ وكيف تخبئ إيماناً بالعشق وتدعي أنها خاوية؟ منذ أول مرة صدقتهم فيها وهي تواصل ابتهالها وتقديم القرابين لأوهام لا تملك لها يقيناً، تنادي، فلا يسمعون، ولا يعود رجع الصدى.

"طفلة حمراء الشعر، بلون العشق، أورثتها تميمتها، وتركتها أمام باب تستطيع أن تتمتع خلفه بالعيد حين يأتي على الأطفال، صفير الريح ليلتها يعوي ويدمدم ،وهي تترنح ألماً لتتخلص من إرثه.

لماذا أنا موصومة بالعشق؟ لماذا هم يعشقون ويرحلون بلا أي أثر يدل على عشقهم؟ كما يصعدون الجبال ،ينزلون الوديان يجوبون الصحاري، ويسلكون الثلوج، يعبرونني ،يخلعون أمتعتهم، يرتاحون، ينامون، بلا بصمة حزن أو فرح تؤكد عبورهم.

كم صار عمرها؟ لا تدري.. كم مضى عليها وهي تقوم بطوفانها الدائري عائدة لنقطة الانطلاق؟ لقد نست كل صلواتها القديمة وقرابينها وابتهالاتها التي كانت تتقرب بها لآلهة أوهامها السرمدية، بحثت كثيراً عنهم، مازالت تذكر ملامحهم، لكنهم ما تذكروها أبداً، عادت إلى مدينتها البعيدة، إلى نقطتها الأولى وغفت.

أحلام تغسل الماء

تنزع ورقة الشوكولا عن الجزء البني المغلف، تقضمها بشراهة تحت أسنانها، القطعة الأخيرة تحتفظ بها في فمها وتبدأ بمصها بهدوء، لا شيء يشعرها بالنشوة لدقائق سوى تناول ألواح الشوكولا بأنواعها المختلفة. تعاود الجلوس على سريرها، تلتف تحت الغطاء، العالم ضبابي جداً، كم تخاف العتمة، يرعبها الظلام والأشباح التي تتسلل من فمه.

"أدري أنني لا أشكل إلا حجراً في رتابة هذا الكون وعبثيته، إنه لا يحتاج وجودي، ولا يلفظني خارجاً، كم هو عدد الذين لا يحتاج الكون وجودهم؟ كثيرون ربما، وأنا بين آلاف الملايين التي يزيد عبء وجودها على هذا الكون، حياتي لها غموض الموت ورماديته، لماذا يظنون أن الموت أسود رغم أنه يأتي متلفحاً بالرمادي، وأحياناً بالبني الغامق يشبه لونه ألواح الشوكولا، في أدراجي هناك الكثير من أغلفتها، لا أحب التخلص من أوراق الشوكولا تأملها

يشعرني بمتعة خفية.

عندما كنت صغيرة كنت أحتال على صديقاتي أضع الرمل مكان الشوكولا ألصق الأغلفة وأعطيها لهن، كانت تلك مداعبات الطفولة، منذ أيام حاولت أن أعطي لأحلام قطعة من الشوكولا لكنها هزت رأسها ولم تبال بي، كانت مشغولة بغسل الماء، كلما رأت مياه المطر تهطل تسرع إلى البهو الخارجي تبدأ بتعبئة المياه من الحنفية في دلو حديدي ثم تضعه تحت المطر ويبدأ المطر بالسقوط على الماء المعبأ من الحنفية، وأحلام تستمر في عملها تعبأ الدلاء وتضعها تحت المطر، لا أحد يسأل أحلام عن أسباب وضعها الماء تحت المطر. الكل يعرف أنها تغسل الماء، لا ينتهي عمل أحلام إلا مع توقف المطر، حينها تحس بغبطة غريبة تغطي مساحات وجهها المثلث الصغير، حواف بنطالها يسيل منها الماء، بلوزتها القطنية رطبة، لكنها ترفض خلعها. تقف أحلام وتبدأ بحمل الدلاء المقدسة إلى الداخل، لا أعرف ماذا تفعل أحلام بالماء بعد ذلك، تستحم به، تشربه؟ "ربما تخبئه للصيف حين يغيب المطر".

لا يصدقها أحد، تقسم لهم أن الأشباح تخرج ما أن يفتح

الظلام فمه، وأنها تسحبها معها، وتلقيها أرضاً وتبدأ بجلدها، لكنهم لا يصدقون، تكره جسدها، تراه دميماً، صار أسود من آثار السياط التي تسقطها الأشباح عليه، تتكور على نفسها بشكل جنيني، تخبئ رأسها، عيناها مغمضتان، لن تفتحهما لأنهم سيأخذونها معهم، ما حاجتها إلى فتح عينيها، تحفظ جيداً كل محتويات الغرفة، بجانب السرير طاولة صغيرة عليها أوراق بيضاء، وأقلام حبر كثيرة، كرسي بلاستيك برتقالي قبيح. يرقد قرب دولاب الملابس البني ذي الدرفتين، هناك قطعة موكيت صغيرة من اللونين البرتقالي والبني، كم تكره البرتقالي، لأنهم يتخذونه وسيلة لإشعال ألسنة اللهب في غرفتها. كلما كانت غافية بهدوء، ونسيت العتمة وتقلبت يميناً ويساراً، لو فتحت عينيها وأبصرت الكرسي البرتقالي ستجد النيران تشتعل به، وتتوهج كلما نظرت أكثر، وتقترب النار منها، تزحف نحو كل ما في الغرفة، تلتهم دولاب الملابس، السجادة والطاولة الصغيرة، وتزحف نحوها، برتقالية جداً، ينهمر من مساماتها سائل أسود يروي النيران فتشتعل أكثر، "تصرخ لا أحد يستمع إليها".

حاولت أن أقول لهم أن أحلام ستمرض وتموت من البرد

لو أنها استمرت في حمل دلاء الماء، وربما تصاب بداء صدري يودي بحياتها.. يرعبني رحيل أحلام، من سيغسل الماء لو ماتت؟

ضربات قوية على الباب، يد كبيرة تسحبها خارج رقعة النار، تمسكها من شعرها، تهزها بعنف، تحس أن شعرها قاس جداً وجاف على رقبتها، يشبه أسلاك تنظيف الصحون في قسوته، كم مضى عليها منذ استحمت آخر مرة، لا أتذكر، اليد الكبيرة التي حركت خصلات الشعر، تدفع إلى فمها ثلاثة حبوب من الدواء، واحدة بنية، واثنتين من اللون البرتقالي، ضوء النهار يغمر الغرفة، لون مصباح النور برتقالي يشبه لون جلسات الكهرباء أيضاً.

لون مر

مصاب هو بالحنين الجارف إلى لون غائب
يبحث عنه يتنفس عميقاً كلما تهيأ له.

تقتات بصيرته من ألوان الطيف الحقيقية للروح فتبزغ من داخله تصورات، وحده يدرك عمق التصاقها بكيانه.. هكذا هو من الممكن أن يحب عبر الهالة اللونية التي لا تخطئ أبداً، لأنها بريئة ونقية، منزهة عن التركيبات المعقدة.

ربما يبدو ما أعاني منه حفنة من الأوهام الخاصة بي، تشبه في طولها واتساعها كتلاً من المدن العائمة، لكنني متأكد أنني لا أبصر من الأشخاص إلا ما يحيط بهم من لون لا يتشابه مطلقاً بين شخص وآخر، إنها إشعاعات لونية متفاوتة، مشعة أحياناً عند البعض، ومتدرجة بين بريق الحليب الأبيض ولمعان لون الكراميل وسخاء تدرجاته، من البيج إلى الذهبي المتماوج بالعسلي. وجوه أخرى أبصرها قاتمة، تتصاعد قتامتها من لون الغبار إلى بقع البترول اللزجة التي تحاصر أرواحهم فأراهم يتحركون كأشباح كل همها

تحسس جيوبها المنتفخة. ليست الحكاية عندي قدرة على الاستبصار اللوني بقدر ما هي لذة اكتشاف الهالات ومراقبتها عن بعد وقرب، بعضها يبدو مستساغاً في البداية بنكهة لونية غامضة تثير لديك إحساساً بالشغف العارم، لكن فيما بعد تكتشف أن هذا ليس إلا ظلال واهية، وأن الهالة المتخيلة التي أبصرتها لم تكن إلا سراباً ربما كان هذا التمرس على استكشاف الهالات ومعرفتها لم يكن إلا احتياجاً مني للعثور علي ما يتواءم مع هالتي التي لم أرها، ولم أعرف لونها".

يحاول جاهداً عبر لعبة الألوان أن لا يسمح لأي جرح أن يطال أعماقه لن يتيح للتكنولوجيا ولا للثورة المعلوماتية أن تشوش على بوصلته اللونية وتفقده الاتجاه.

"لن أستطيع البوح، ولن يصدق أحد حقيقة إدراكي اللوني الذي ينبعث من أعماقي، قد يبدو بعضهم قبيحاً للغير، لكني لا أبصره كذلك، لأن هالته اللونية تبرق بشعاعات من فجر الطفولة، وفرح الشباب.. أنا لا أكترث بالحجم أو الشكل، لا أبالي بتضاريس الجسد، وتقاطيع الوجه، لا تعنيني هذه التفاصيل التي يمكن أن يعالجها بخفة

جرَّاح تجميل ماهر.. يأسرني فقط الشعاع المنبعث من الكتلة المتحركة، أحب، أكره، أصادق أنفر وأبتعد فقط من نظرتي إلى الهالة اللونية التي لا تفصلني عن الحقيقة بل إنها دليلي للمعرفة ووسيلتي للاكتشاف".

أبصرها من بعيد يشع منها اللون الغائب، هي كما رآها عن بعد مزيجاً من تسلسل ألوان الغسق والشفق، الفجر والسحر، أية زلزلة لونية أحدثتها داخله تلك الفتاة الغجرية، الطفلة المفعمة بكل هالات الأمل.

"أخيراً صمت التردد، سكت القلق، وتلاشت كل الألوان المعتمة. لقد وجدتها إنها لوني الغائب الذي أبحث عنه، هي الزهرية البيضاء، الفضية الوردية، الذهبية، الشاحبة المشرقة، السماوية، الهائمة بصفاء شارد خلف إشعاعاتها المركبة من روح قوس قزح وامتزاجه بالشعاعات الفضية المنسابة على الراقصة تحت ضوء القمر.. وحدها اخترقت مساحتي واتساع مدني لتواصل إطلاق ألوانها الخرافية داخلي.

معا يفصلهما مربع خشبي بلون التراب، حين حدق في

عينيها هبطت روحه إلى متاهة الألوان وغاصت بوصلته في رمال الحيرة وعصفت به الرياح اللونية.

أريدك قلتها، وأنا أشرح تأثير هالتها عليّ للمرة الأولى تكلمت عن الألوان وعن بصيرتي اللونية وإيماني بالهالات كانت تستمع إليّ بصمت وهدوء، مسربلة بألوانها الأسطورية غير المكتشفة بعد. غمرتني سعادة وردية، وردية تماماً، وأنا أتأمل عبقها المبهر الذي غمر كياني، لكن رويداً رويداً بدأت سحابة صفراء تغمرها تطغى عليها، وعيناها تطوفان بي، تحدقان في هالتي، برودة قاتمة السواد، وصمت جليدي بدأ زحفه البطيء نحوي قبل أن تطلق عبارتها الأخيرة قائلة: "إن لونك مر لا يتناسب مع لوني".

آنهيمالا

قررت آمنة – وهذا ليس اسمها الحقيقي – الذهاب يوم الأحد إلى المسبح. أقنعتها صديقتها فرحهالو، بأن المسبح يوم الأحد يكون فرصة لأشياء كثيرة، لعل أهمها من وجهة نظر فرحهالو مواعدة شباب مناسبين للرفقة والتنزه طوال اليوم. أما آمنة فقد بهرها حديث فرحهالو عن المسبح، وعذوبة الماء، ورقص الفتيات قرب حوض السباحة، والوقت الضائع في الاسترخاء المفقود.

العائلة التي تعمل عندها آمنة اختارت لها هذا الاسم بدلًا من اسمها الحقيقي «آنهيمالا»، فقد غير سيد البيت اسمها لأنه صعب ولن يتمكن هو والأطفال من نطقه بسهولة، كما طلب منها أن تضع غطاء الرأس على شعرها، لكنه لم يمنعها من الذهاب في يوم الأحد إلى الكنيسة، لأداء شعائرها. وكما لو أن عبارة «للمرء حظ من اسمه» انطبقت تمامًا على آمنة، إذ بعد حصولها على الاسم الجديد صار

لديها نوع من الإيمان المتدفق، بحيث لا يمكنها أن تفوت يوم أحد من دون الذهاب للكنيسة والاستماع للقداس، والصلاة أمام تمثال السيدة العذراء، والتضرع لها. وبعد الانتهاء من الصلاة، كانت تتسكع طويلًا في الشوارع، وأحيانًا تتعرف بخادمات أخريات في الكنيسة أو الشارع، فيترافقن معًا إلى شاطئ البحر، ليتنزهن هناك، حتى موعد عودتهن في الساعة الرابعة، بما أن الأحد هو اليوم الوحيد الذي يسمح فيه لهن بالخروج من البيت.

لكن آمنة في معظم الأحوال لم تكن تغيب لوقت طويل يوم الأحد، فقد كانت تغادر رفيقاتها بعد ساعة، أو ساعة ونصف الساعة على الأكثر، لأنهن يبدأن بالتغامز والاتفاق على مشاريع بدت غامضة بالنسبة إليها في أول الأمر، لكنها عرفت فيما بعد أن حياتهن في هذا البلد الغريب، تسير بجهد مضنٍ يجعلهن ينتظرن يوم الأحد بفارغ الصبر، كي ينفسن عن رغباتهن المكبوتة.

تركت آمنة في بلدها البعيد، زوجًا، وطفلًا صغيرًا، ربما لهذا السبب لم تكن مقتنعة بمشاركة رفيقاتها باللهو، لذا كانت مخلصة في عملها، وفي صلاتها أيضًا، هذه هي المرة الأولى

التي تغادر فيها بلدها نحو بلد غريب، هي لم تعمل سوى في حقول الشاي، وجاءت إلى هنا بناء على عقد عمل مدته عامان، لا بد أن ينتهي في وقت ما، وستعود حينها إلى بلدها وأسرتها، ومعها مبلغ جيد من المال. وحتى ذلك الحين، هي مستمتعة بالطعام اللذيذ الذي تحصل عليه، وبالمبيت على سرير نظيف، وبإجازة يوم الأحد. كان ما يزعجها فقط نوبات السعال التي تسبب لها الحرج أمام أفراد الأسرة.

سيدتها، كانت امرأة ذكية، فقد سمحت لصديقتها فرحهالو التي تسكن في المبنى المقابل بزيارتها مرة أو مرتين في الأسبوع، كي لا تلتقيها آمنة بعيدًا عن أعين العائلة، حيث تحدث أمور بين الخادمات لا أحد يعرف أين تنتهي. تعرفت آمنة إلى فرحهالو عبر البلكون، في البداية ظلتا تتبادلان الإشارات لأيام، ثم التقتا في الشارع حين كانت آمنة تشتري أغراض البيت، وحين عرفت سيدتها أن فرحهالو تعمل عند عائلة مجاورة ومعروفة، أي أنه لا يوجد خطر من لقاء الخادمتين. سمحت لآمنة بالتزاور مع فرحهالو، وبالترافق في الذهاب معها إلى الكنيسة يوم الأحد، على الرغم من أن زيارة الكنيسة لم تكن ضمن مشاريع فرحهالو المفضلة ليوم الأحد.

خلال الزيارات، كانت الخادمتان تجلسان في المطبخ، وتقوم آمنة بعملها خلال وجود فرحهالو، إلا أنهما كانتا تتخاطبان بلغتهما التي لا يمكن أن تفهمها السيدة بأي حال من الأحوال، وغالبًا ما كانتا تشكيان لبعضهما سوء تصرفات السيدات، وغرورهن، ولؤمهن، وشرهن المتأصل في معاملة الخادمات، بالإضافة إلى الشكوى من الأطفال وتربيتهم الفاسدة، كما لا يخلو الكلام من الشوق والحنين إلى البلد البعيد، والأهل والزوج الصبور الذي ينتظر عودة زوجته.

كانت آمنة سمراء، بلون الشوكولا البنية، نحيفة جدًّا، وقصيرة، لا يوجد أي جزء بارز في جسدها، شعرها قصير، ملامحها أقرب إلى الغلام، لذا لا يمكن إعطاء سن محددة لها، من الممكن أن تكون بين الثامنة عشرة والثلاثين. أما سنّها حسب الأوراق الرسمية، فقد كانت ٢٣ عامًا، وحسب أقوال أمها ٢٤، لكنها لا تهتم كثيرًا بهذا التفصيل المبهم ، لعل أكثر ما يعنيها الآن، البقاء في هذا العمل، لأنها رغم كل ما تعانيه في عملها هنا يظل أكثر رحمة من ساعات عملها الطويلة تحت أشعة الشمس في حقول الشاي.

فرحهالو كانت أكثر جمالًا منها، رغم أن لونها بني أيضًا، لكنه أكثر لمعانًا، كما أنها تتمتع بقامة فارعة نسبيًا، مقارنة بآمنة، لديها مؤخرة بارزة وخصر نحيف، وساقان متناسقتان. وكان في عيني فرحهالو بريق وجرأة واضحة لا تخفى على أحد. في المقابل، كانت عينا آمنة مثل نور خفيف شاحب لفأر أسمر مذعور.

كان الذهاب للمسبح يوم الأحد في أيام الصيف، المتعة المفضلة عند فرحهالو، متعة لا يمكن الحصول عليها إلا مرة أو مرتين في الشهر لعدم قدرتها على دفع رسم الدخول للمسبح، وما يتلو ذلك من مصروفات إضافية ثمنًا للطعام والعصير، حيث الثمن مضاعف في المسبح.

انعكس انتظار يوم الأحد على آمنة أيضًا، نتيجة تشجيع فرحهالو لمرافقتها للمسبح. أوضحت لها أنها تحتاج إلى شراء مايوه، كما تحتاج إلى نفقات الدخول للمسبح، أي أن الأمر كله سيصل إلى مبلغ خمسين دولارًا تقريبًا، ما يعادل ثلث راتب آمنة. لكنها بعد تردُّد دام أسبوعين، وافقت على الذهاب، وأعطت فرحهالو المال لتشتري لها المايوه. كانت تحس بالغضب لأنها علمت من أمها أن زوجها روبير يسهر

كل ليلة في البار، ويرافق الفتيات إلى بيته، وأنه لا يسأل عن ابنهما، وينفق المال الذي ترسله له على متعه الشخصية.

أمام المرآة، في الحمام، كانت آمنة ترتدي المايوه الذي أحضرته لها فرحهالو يوم السبت، كانت تستعرض جسدها في المايوه المكون من قطعة واحدة، من اللونين الأخضر والأصفر، مفتوحة عند الظهر، لأول مرة أحست بأن جسدها النحيل ولونها الأسمر لا يسببان لها إحساسًا بالدونية، غمرها إحساس بالامتلاء، وبأنها جميلة، بل جميلة جدًّا، وبأنها يجب أن تذهب للمسبح كلما تمكنت من ذلك، مثل فرحهالو تمامًا.

كانت السيدة هي التي لاحظت وجود بقع دم على منديل آمنة، راقبتها أكثر من مرة وهي تسعل بشدة، ثم تأكدت بما لا يدع مجالًا للشك أن هناك بقع دم تندفع من صدر خادمتها كلما سعلت. أخذت السيدة قرارها بإعادة آمنة لمكتب تشغيل الخادمات، لكنها كانت بحاجة إلى سبب قوي يمكنها من إعادة الخادمة ومحاولة استعادة المال الذي دفعته لإحضارها من بلدها.

في الصباح الباكر من يوم الأحد، طلبت السيدة من آمنة أن ترتدي ثيابها لترافقها إلى المستشفى، حاولت السيدة أن تشرح لها ضرورة الذهاب إلى المستشفى لإجراء التحاليل اللازمة، لكن آمنة هزت رأسها بالرفض، موضحة أن اليوم هو إجازتها الأسبوعية، ولا يحق للسيدة أن تفرض عليها شيئًا، كانتا تتفاهمان بمزيج من اللغات والإشارات، بحيث لا توجد جملة كاملة من الممكن أن تفهمها إحداهما من الأخرى. فقد اكتشفت السيدة أن آمنة لم تعترض من قبل على أي نوع من الأوامر أو التعليمات، لذا لم تكن تدخل معها في جدل، أما الآن وهي تحاول إقناعها بخطورة الموقف، فقد ارتفع صوت آمنة عن مستواه المعتاد لأول مرة منذ دخولها إلى هذا البيت. كانت آمنة تتحدث بصوت مرتفع، وبعبارات متتالية، بلهجتها المحلية طبعًا، التي لم تكن السيدة تفهم كلمة منها، لذا لم تفهم أبدًا حكاية المايوه والمسبح، وما اتُّفق عليه بشأن يوم الأحد، لم تفهم أي شيء إلا بعد أن اندفعت آمنة وعرضت في وجه سيدتها المايوه بلونيه الأخضر والأصفر، ثم خرجت مندفعة خارج البيت وبيدها المايوه.

ربما فهمت حينها أن آمنة كانت تقول لها: «ماذا أفعل

بالمايوه.. ماذا أفعل بالمايوه».

أما السيدة فقد ظلت تنظر بذهول إلى باب الشقة المفتوح، وإلى منديل أبيض عليه بقع حمراء من الدم، ألقته آمنة على الأرض قبل أن تغادر.

السابعة إلا ربع مساءً

رن جرس الباب مرتين وبعد ثوان رن مرة ثالثة إنها: أمينة، حبست أنفاسي وقررت ألا أفتح توقفت عن الحركة وخفضت صوت التليفزيون لأتأكد من ابتعادها، لكنها تعلم يقينا أنني هنا ولن تيأس. لكن لن أفتح لها الباب، ولن أتركها تحدثني عن العصابة التي تسكن في الشقة المجاورة لشقتي، ولا عن صيدلية الدكتورة سهام التي تبيع حقن المخدر للشباب ولا عن المرأة المستشقرة التي تغادر منزلها هي وابنتها في العاشرة مساء وتعود وجه الفجر.

لن أنصت لحكايا أمينة بعد اليوم، ولن أسمح لها بسحبي إلى عالمها. سرت نحو النافذة، رفعت الستارة قليلاً، الشمس تسدل آخر نعمها على رأس الهرم الأكبر. ها هو "خوفو" ينظر إليّ كما يقول زوجي، كلما فتحت النافذة ليلا ورقصت في الصالة، يهمس لي: إن خوفو يتفرج عليّ الآن وربما يظنني راقصة في معبد تقدم قربانا للآلهة. سقط الرنين ثانية على

سفري الزمني، أعادني إلى هالة الحقيقة من جديد، إنها هي، نقلت بصري إلى الساعة المجاورة، إنها السادسة والنصف، باقي نصف ساعة على عودة زوجي.

أخمن ما سيحدث الآن ستلمحه قادما وستعرف أنني هنا، وقد تغضب مني، إذن سأفتح لها الباب وأدعها تجلس قليلا ريثما يأتي، وما إن تراه حتى تنسحب بسرعة كما لو أنها تنظر إلى الرجال على أنهم كائنات فضائية ستقول لي بعد جلوسها بثوان قليلة:- أنت فين خبطت عليك ثلاث مرات؟ أعرف أنها تكذب، وأتلعثم في ابتداع كذبة سريعة. ستجلس على الكرسي المنفرد فينفرش جسدها، أذهب أنا إلى المطبخ أحضر كوبا من العصير، وصحناً من الفستق أضع الصينية أمامها أبلغها أنني سأعد القهوة، يرتفع صوتها مناديا عليّ، ثم قائلاً: عرفتي حصل إيه؟

تطلق سؤالها ولا تنتظر مني تعليقا، بل تتابع وهي تضع يدها على صدرها، تفتح عينيها باتساع، يرتفع حاجباها، وتتحرك أهدابها بسرعة، في محاولة لتنبهني إلى أهمية ما ستقول: "الست زعيمة العصابة اللي جنبك، امبارح لما صحيت الساعة ستة نازلة للمدرسة، شفتها هي وراجل كبير

وضخم ومعاهم بنت صغيرة عندها ست عشرة سنة دخلوها الشقة وما عرفتش حصل إيه، البنت كانت بتصوت وأنا ما عرفتش أعمل إيه، كنت هخبط عليك يمكن الأستاذ جوزك يتصل بحد، هو صحفي وعارف ناس كبار لكن قلت أنتِ هتكوني نايمة". أنظر إلى أمينة بدهشة وأقول لها: غريب لم أسمع شيئاً، وتعود هي لتؤكد لي إن كل ذلك يحدث في ساعات الفجر الأولى حين أكون نائمة.يذهب ذهني إلى الفتاة الصغيرة التي خطفتها العصابة فأسألها عنها فتقول لي:"وما عرفتيش إن امبارح الدكتورة سهام جت مداهمة على صيدليتها بس مالقوش حاجة، مع إني قبل نص ساعة كنت واقفة في البلكون ولمحت شاب صغير دخل عندها علشان تديله حقنة ماكس".

يا إلهي؟ أهمس في سري، وتتابع هي:

"أيوه أنت ما تعرفيش بيحصل إيه هنا، اوعي تفتحي لحد لما تكوني لوحدك تفتحي الباب لي أنا بس زي ما اتفقنا، أرن ثلاث رنات رنتين وبعدين رنة".

أهز رأسي ايجابا، فيما هي تشرب الجرعة الأخيرة من

كوب العصير.. سيدور مفتاح في الباب، ويدخل زوجي تشد عباءتها ثم إيشاربها وتقول "استأذن أنا دلوقت".

تمر من جانبه وعيناها على الأرض بالكاد تلقي التحية، وما أن تغادر حتى أعيد سرد ما قالته لي عن الحي والشارع والعصابة والبنت المخطوفة، والشاب المدمن، والمرأة التي تدفع ابنتها إلى الشارع، يبتسم هو ويقول لي إن جارتي خيالها واسع أو إنها تستمتع برؤية الدهشة تعلو ملامحي، أحس بأسئلة كثيرة تخلفها أمينة وراءها قبل أن تذهب وتتركني معلقة فلا أحصل على إجابات.

أول مرة رأيتها كانت قبل ستة أشهر حين قرعت على بابي لأجد أمامي امرأة قصيرة ممتلئة، وجهها مستدير دقيق الملامح، تلف جسدها بعباءة سوداء وتشد إيشاربها على رأسها وتلقيه إلى الوراء.

عرفتني بنفسها بأنها تسكن في الشقة المقابلة لشقتي، ،وسألتني أن أعطيها قليلا من الملح لأنها تعد طعاما لزوجها، بعد ذلك صارت تصافحني كلما التقينا على السلم، تلح عليّ بالدخول لزيارتها أعتذر وأدعوها لزيارتي، لأفاجأ بأنها

تعرف عني كثيراً من الأشياء. قالت لي في زيارتها الثانية: "أنا عايزاك تسامحيني في موضوع بس احلفي إنك مش حتزعلي": وقبل أن أجيب تتابع "أنا كنت فاكرة الأول إنك أنت والأستاذ عايشين مع بعض كده، بس لما لقيتك كل يوم معاه، عرفت إنك مراته، احنا دلوقت بقينا اخوات ماتزعليش مني".

لا أعلق وتتعطف هي بالكلام عن البلد وعن أبيها العمدة، وعمها الذي قتل ١٣ رجلاً في ليلة واحدة وكيف تركت البلد هربا من بطشه لأنه كان يريدها عروسا لابنه. أصمت وأنا أراها تلملم الجرائد القديمة الموضوعة أمامي وتقول لي إنها تحتاجها لتفرش عليها الطعام، أحاول أن أشرح لها أنني أحتاج هذه الجرائد لأرشيفي الخاص، لكنها تغضب وتقول لي :"إنت بتعزي عني شوية جرايد قديمة". أتركها لها لأجدها في اليوم الثاني تسألني عن الحادثة المذكورة في الجريدة التي أخذتها مني، وللتأكيد تسرع في سرد الحادثة، أهز رأسي نفيا بأني لا أعرف وأصرح لها بأني لا أقرأ صفحات الحوادث أبدا فتقلب شفتها السفلى باستغراب يشبه الانزعاج.

منذ شهرين أتت إليّ لتقول لي بصوت خافت إن العصابة

التي تسكن بجواري ستترك الشقة وقبل أن أسأل كيف عرفت بالخبر، أردفت كلامها بعبارة أخرى تشكو فيها من صاحب الشقة كيف أنه طالب بمضاعفة الإيجار أو الرحيل، ثم تنعطف للحديث عن غلاء الأسعار وسعر تصريف الدولار في السوق السوداء.

لا أتابع كلامها أنشغل عنها بتقليب المحطات الفضائية وحين توقفت مرة عند أحد البرامج الحوارية التي تقدم مناظرة بين أحد الإسلاميين وبين مفكر يساري ارتفع صوته قائلا "حقا الدين أفيون الشعوب" خبطت أمينة على صدرها وأعادتني إلى عالمها وهي تقول:"أفيون.. أفيون تاني".

أكاد أضحك لكني أحس بالغيظ من وجودها وحكاياها التي تفرضها عليّ، فلا أستطيع تصديقها أو تكذيب كل ما تقول. وحتى بعد رحيلها إلى مبنى مجاور ظلت تزورني مرة أو مرتين في الأسبوع وتستمر في سرد تفاصيل كثيرة عن عصابات أخرى لا أعرفها، وتصف لي أن شرفة شقتها الجديدة تواجه عمارتنا لذا فإنها تبصر سيارتي حين أكون في المنزل، إذن لابد أنها هي الآن ،لكن لن أفتح الباب حتى لو قرعته مراراً. إنها السابعة إلا ربع تماما، ربع ساعة ويصل

زوجي. عدت لأقف قرب النافذة، أتأمل لون "خوفو" الترابي عبر طرف الستارة الجانبي.

تعلو ضجة في الشارع، صوت إطلاق نار يستدعي انتباهي، أرفع الستارة أحرك دفة الشباك قليلا، سيارة بوليس تقف في الشارع، رجال ونساء وضجيج هائل، ومن بين تلك الوجوه والأصوات أميز عباءتها السوداء الواسعة، وإيشاربها المشدود يسقط أرضا وهي تصرخ في محاولة لإبعاد رجل الشرطة عنها، فيما هو يحاول إدخالها إلى السيارة أحسست بقشعريرة، ما علاقتها بالأمر؟ ومن كان يرن جرس الباب إذن؟ مفتاح يدور في الباب، ووجه زوجي يبحث عن وجهي في العتمة ينادي عليّ، أسأله مباشرة ماذا جرى؟ ماذا هناك؟ ولماذا يقبضون على أمينة؟ أطلب منه الإجابة يهز برأسه نفيا بأنه لا يعرف وبأنه لم يشاهد أي سيارة بوليس أسفل العمارة.

أحكي له أن أمينة رنت الجرس رناتها المعتادة ولم أفتح لها. ثم أحكي له ما شاهدت، أسأله عما يجب علينا فعله لمساعدة أمينة، لكنه يؤكد لي أن الشارع هادئ تماما وأن لا دورية بوليس ولا عسكري ولا أحد يقف هناك أحكي له من

جديد كل الحكاية، فلا يجيبني بقوله: "ربما.. ربما". أحس بعجز حقيقي يدفعني للنزول إلى الشارع بحثا عن حقيقة ما يجري.

خمسة وجوه لعالم حياة

(١)

حين استيقظت من نومها كانت تحلم بشارع طويل، معلق بين جبلين، تظلله أشجار حور وكستناء، كانت تمشي وتمشي، والطريق يمتد..

في اليقظة أدركت كم هي بحاجة إلى المضي بعيدا.

(٢)

يوم أتمت الخمسين، أدركت حياة أنها عاشت سنواتها الماضية مع أحلام مؤجلة، موعودة، ترتق بها أيامها، أن ثمة غدًا آتٍ لا محالة، وعليها انتظاره. لكن قبل بلوغها الخمسين بأعوام تضاءلت هذه الفكرة داخلها، وحل مكانها هبوب قسري لأفكار أخرى، جعلتها تنتقل إلى مكان تثقل فيه الجاذبية بشكل مخيف، فتشد قدميها إلى الأرض، وتجعلها عاجزة عن الحركة.

في يوم ميلادها، فكرت بثقل العيش، وأنها مجبرة على الاستمرار في الحياة «حياة مضطرة للحياة»، غمرت وجهها ابتسامة ساخرة وهي تردد اسمها.. حياة.. حياة.. اسم بلا مدلول. اليوم حين يأتي أصدقاؤها عند المساء لن تتمكن من القول لهم إنها تحس بوطئة العيش، وثقله على روحها، صديقها الوحيد سيواصل تقديم النصائح لها بالقيام بتدابير بسيطة للحصول على السعادة، صديقتاها ستهمسان لها بأن ما يحصل بسبب «سن اليأس»، ومن قبل كانتا تقولان إن كآبتها تحدث بسبب قرب موعد دورتها الشهرية، واكتمال القمر.

في الأعوام الماضية اعتادت أن ترسل نداءات لإنقاذها، تسميها «SOS».

تقول لمن يحبها، إنها وصلت للقاع، وتحتاج إلى من يسحبها إلى أعلى، لكنها فقدت القدرة على إطلاق النداءات. وحين كانوا يسألون عنها، ترد مع ابتسامة: «إن كل شيء على ما يرام». لكن اليوم ها هم قادمون بعد ساعات للاحتفال بيوم ميلادها.

في غرفتها كانت محاطة، بكتب كثيرة، أسطوانات موسيقية، وأفلام، تحدق حياة في السقف، وفي لون الجدران الزهري الفاتح، اختارته بهذه الدرجة ليبعث عندها الرغبة بالتفاؤل، لكن وظيفته الأساسية صارت استقبال وجهها الشاخص نحوه، وعينيها المعلقتين في وسطه. نقلت بصرها نحو عناوين الكتب، كانت على نسق «**دليلك إلى السعادة**»، و«كل الأحلام ممكنة» و«قوة المخيلة»، وعناوين أخرى مؤثرة لأشخاص يشبهونها وصلوا إلى القاع، وعادوا منه، لكن هي لم تعد راغبة بالعودة. كانت تحس أنها تشبه أطفال الشوارع الذين ألفوا الشارع، وصار من الصعب عليهم العيش في بيت، وسط عائلة. هي ألفت قاع الألم، إن كانت موجودة في القاع أصلًا.

في البداية ظنت أن هذا سيمر، وأنها لن تلبث أن تنهض على قدميها، لكنها حين حاولت أحست بعجز شديد، كما لو أن قدميها مشلولتان.

(٣)

في أدراجها أوراق كثيرة، نتف حكايات لم تكتمل لأنها ظلت رهينة غدٍ لم يأتِ. كانت تواصل الكتابة من دون فعل

اكتمال لما تكتبه، وهذا ما عذبها أكثر، وجود أشياء معلقة تحتاج إلى نهوض هي عاجزة عنه.

في دفترها الصغير الأخضر المزين برسومات لأوراق شجرة توت، دونت أفكارها. فتحت الصفحة الأولى قرأت عنوان نص شرعت في كتابته قبل أشهر «هي والشمس، أنا والقمر». سمعت في المطبخ حركة تعرفها جيدًا، ويمكنها أن تخمن ماذا ستكون الحركة التالية، زوجها يصنع لنفسه الشاي، أحست بأنها جائعة بشدة، لكنها لم تجرؤ على طلب المساعدة منه. في تلك اللحظة أيقنت أنها غير قادرة على الاهتمام بنفسها، هي جائعة وليس لديها رغبة بمضغ الطعام، هناك صعوبة بالغة في قطع الخبز ومضغه. العالم لا يحتاج إلى أمثالها، لأنهم يزيدون عجزه، وهي شديدة الهشاشة مثل رماد سيجارة في يد مصارع عجوز. تحتاج الآن إلى يد قوية تمسكها من جناحيها، وتضعها تحت رذاذ الماء البارد لإيقاذها، ثم تجفف لها جسدها، تلبسها ثيابها، قبل أن تقدم لها وجبة دافئة.

(٤)

ما السعادة؟ هل من المهم أن تعثر على الإجابة الآن؟

وضعت الدفتر الأخضر جانبًا، فكرت أن هذا كله غير متاح، وعليها أن تنهض، ينبغي أن تنهض سريعًا، وأن تواصل العيش المطلوب منها، الدور الذي ينتظره الجميع. في المطبخ أكلت تفاحة، قضمتها بصعوبة، ثم اتصلت عبر الهاتف لتطلب قالبًا للحلوى يكفي خمسة أشخاص.

أمام مرآة الحمام، نظرت إلى جسدها، تهدل صدرها قليلًا، لكنها نحفت كثيرًا، خسرت وزنًا خلال الأشهر الماضية، قالت للجميع إنها تتبع نظامًا غذائيًا صارمًا، كذبت في هذا أيضًا. تحت رذاذ الماء الدافئ أحست بأنها عالقة في الوسط، وأن ثمة يدًا تدفعها دفعًا للأمام، لكن جاذبية الأرض تشدها للقاع.

(٥)

لبست ثوبًا حريريًا زاهيًا، من اللون الفيروزي، جلست على مقعدها الصغير أمام المرآة ووضعت طبقة من الكريم، وبدأت ترسم خطوطًا على وجهها، طبقات لامعة على

الوجه، خطوطًا على العينين والشفتين والجفنين. صورة المرأة المشرقة الموجودة في المرآة ليس لها علاقة بالمرأة الأخرى القابعة هناك في القاع.

أسندت مرفقيها إلى الحافة، نظرت إلى الساعة، سيصلون بعد ساعة ونصف،كانت تتمتم بصوت خافت: «كل شيء على ما يرام».

صورة مشروخة

"الذكريات التي يختزنها المرء تصنعه".

تذكرت هذه العبارة وأنا أتأمل الصورة، كم تعنينا الصور على صفحات الجرائد حين نعرف من يسكنها، وخصوصًيا إذا رحل عن عالمنا، لكن نظري عاد يسرح لبعيد، من هذا الطابق المرتفع.

أنظر إلى لامكان، لا شيء يشد بصري أبدًا، لا زرقة السماء، لا بعض الغيوم الشاردة، كنت أطالع السماء وأتابع اللاشيء، كيف حدث كل ذلك؟ وكيف كنت سأساعدها دون أن أخسر سمعتي وأصدقائي وكل من حولي؟ رحلت فجأة، وعادت فجأة، اتصلت بي هاتفة بخوف:

فاطمة، ليس لدي أنت ، إن لم تساعديني أنتِ، فلن يساعدني أحد. إن الأمر مجرد فخ، ثقي بي، ثقي بأيامنا معًا. بدت من صوتها المرتعش كغريق ينظر إلى كخشبة خلاص، لم أستطع إلا إجابتها بتعاطف "لن أتركك".

كانت سحر من أكثر الفتيات تميزًا وسحرًا لم تكن الأجمل بل الأكثر دهشة وإثارة، كانت شقراء، زيتية العينين، نحيلة، شعرها تقصه بشكل "كاريه"، كل الأشياء حولها تمر عبر قلبها ثم عقلها، حتى أحكامها الشخصية على الناس والمجتمع، فلا يهمها أن تتورط من أجل التعاطف مع قضية أو فكره أو شخص ترى أنه على صواب، أحيانًا كنت أحس بداخلها نواة لشيء اسمه "التطرف".

تعرفت إليها في العام الأول من قدومي إلى بيروت، كانت تسكن معي في بيت صغير للطالبات، وسرعان ما توطدت العلاقة بيننا وصرنا صديقتين. كنت أدرس الحقوق، وكانت تدرس الإعلام في الفرقة الثالثة، لذا كانت منطلقة ومتحدثة تحاور وتسأل يحس الآخر نحوها كما لو أنه التقي بها من قبل، كانت مرشدتي في كثير من الأماكن التي أجهلها وكنت أسر بالتجوال معها في شوارع المدينة، ومرافقتها في تغطية بعض التحقيقات الصحفية.

من أكثر الأشياء التي أثارت دهشتي فيها تلك الغرفة الصغيرة التي تجسد مزاجها الصاخب بالحياة، في وسط الغرفة سرير صغير إلى جانبه مكتبه بخمسة أرفف، تضم كتبًا

متضاربة الموضوعات، طاولة صغيرة اختلطت فيها الأوراق بالكتب، وأقلام الكتابة بأدوات التجميل على الحائط صورة "غيفارا" وعبارات لفلاسفة غربيين وأقوال مأثورة، ولوحات مرسومة بتوقيع "سحر"، ولعبة صغيرة "لبابا نويل" يبدو عليها القدم. كنت أدرك في تلك الأثناء، أنها مرتبطة في علاقة حب مع "وائل" زميلها الذي تخرج وعمل في الصحافة، أحياناً كنا نلتقي ثلاثتنا في الجامعة أو على كورنيش البحر، وكانا يبدوان لي في غاية الانسجام والتآلف أو هكذا كنت أرى الأشياء حينها.

فجأة، خفت كل ذلك الصخب، وانطفأ بريق الحياة في عينيها، صارت تتجنبني بتعمد لتمضي معظم أوقاتها في عزلةٍ اختيارية، في غرفتها العجيبة.

رغم مرور الزمن مازلت أذكر بوضوح تلك الليلة، كنت قد حسمت الأمر، إنها تعاني من علةٍ ما، كثر ترددها على "الحمام" وصوت القيء الذي تحاول نكرانه كي لا يصل إلى مسامعي.. لم يتبادر إلى ذهني أبدًا نوع المشكلة التي تعاني منها، لذا حين ارتفع صوتها بالنشيج والبكاء، فتحت باب غرفتها دون أن أستاذنها في الدخول، حينها أصبت بهلع

حقيقي لأن ذاك الشعر الأشقر الجميل المصفف بعناية، والمقصوص عل شكل "كاريه" لم يكن إلا باروكة موضوعة جانبًيا، بينما كانت سحر تمزق شعرها وتصرخ. كانت شبه صلعاء. لم أكن أصدق ما أراه. "سحر"، التي شبهتها في المرة الأولى بالممثلة المصرية "نيلي" بكل مرحها وحركاتها الاستعراضية، كيف ظننت أني أعرفها بما يكفي؟ كيف لم أخمن أن وراء تلك الضحكات مجرة من الأحزان.

سرت نحوها كالواقعة تحت تأثير تنويم مغناطيسي، بالكاد كانت تحس بوجودي كانت تصرخ وتبكي وتردد عبارات غير متصلة وتضرب الحائط، بقبضه يدها، اقتربت منها وأنا أحاول التماسك، في محاولة لتهدئتها، تمسكت بي، ملقية برأسها على كتفي وهي تبكي، فيما كنت أسألها بالحاح، ماذا يجري، ماذا هناك؟ لم تتكلم، لكنها أشارت إلى علبة الأدوية على الطاولة كي أعطيها إياها، كان نوعًا من الحبوب المهدئة مستهلكة حتى نصفها، بعد أن ابتلعت حبتين تمتمت في نشيج كئيب، ودموعها تملأ وجهها:

فاطمة، أنا حامل.

كانت المفاجأة الثانية بالنسبة لي، إذ أحسست أنني أتحرك في فيلم سينمائي وأن كل ما يدور حولي هو محض خيال لأحداث مكررة، مللت مشاهدتها. لم أتكلم، ابتلعني الصمت، بينما دخلت هي في حالة من حالات الهلوسة، والبكاء.

الأيام التالية كانت الأقسى بالنسبة لي، إذ كنت أجهل ما عليّ فعله سوى البقاء إلى جانبها للعناية الصحية بها، لم أفكر بأي نوع من الحلول، إذ لم أكن أعرف عن "سحر" إلا اسم القرية التي جاءت منها، وعلاقتها العاطفية مع "وائل"، ولفت انتباهي أن "وائل" لم يتصل بها طيلة فترة مرضها، لكني فضلت عدم سؤالها في ذاك الحين.

بعد أيام حين تحسنت حالتها قليلاً، قررت مغادرة البيت، عرضت عليها المرافقة، لكنها رفضت بإصرار، حينما عادت كانت في حالة منهارة تمامًا تشبه حالتها الأولى، لكن هذه المرة بدت أكثر حدة وانفعالاً، كانت تهذي، وتكرر اسم "وائل" تضرب على بطنها، ثم تطلب الموت. ولم يكن أمامي حينها إلا إعطاؤها الحبوب المهدئة التي تناولتها في المرة السابقة.

قررت البحث عن رقم "وائل" في هاتفها المحمول. أخرجت الرقم من ذاكرة الهاتف، ثم قمت واتصلتُ به من هاتفي الخاص، وطلبت لقاءه حالاً.. أجابني بأنه سيلقاني لكن بعد ساعتين من الزمن في المكان نفسه الذي اعتدنا الجلوس فيه على كورنيش البحر.

ملامحه كانت معجونة بالتوتر والقلق، حاول مداراة انفعاله باختلاق حديث مفتعل عن الدراسة، وكلية الحقوق، وطرق النجاح وما فيها من محسوبيات. ثم قال وهو ينفث دخان سيجارته: هذا البلد لم يعد يحتمل، سأغادر فور أن أخذ التأشيرة بعدأسابيع..

– تغادر..؟!

كررت الكلمة بهلع، وكأنني أحسست أنني سأترك وحيدة مع سحر من دون أن أملك حلاً لمشكلتها.

قلت:

– جئت أكلمك بشأن "سحر".

ابتسم ابتسامة جانبية وهو يتمتم:

- إذن أخبرتك.

- لا لم تخبرني، بل عرفت من خلال حالتها الصحية.

ثم تابعت: سحر تقول إنك والد الطفل، وأنك تخليت عنها وهي في حالة سيئة جدًا الآن، إنها منهاره تمامًا.

اندفعت بالكلام والوصف، وكأني أرجوه المساعدة.

ارتفعت نبرة صوته وهو يقول:

- هذا غير صحيح، أنت تجهلين الكثير من الأمور، لقد ظللت إلى جانبها حتى اللحظات الأخيرة، لكن كفي، لم أعد أحتمل خداعًا.

قلت بسذاجة:

- خداع، عن أي خداع تتحدث؟ هي تحبك.

هدأت نبرة صوته قليلاً ثم قال:

فاطمة، استمعي إلي، لم أكن لأريد التحدث في هذا الأمر لكنك تجبرينني على ذلك، أنا كنت أعرف بمرض "سحر" العصبي الذي أصابها بعد تعرضها لحالة الاغتصاب

منذ سنوات، ولتمسكي بها كنت آخذها إلى جلسات العلاج النفسي عند طبيب مختص، وبالفعل بدأت تتحسن وعاد شعرها لينمو من جديد، ثم توطدت علاقتنا وكانت تتردد على في بيتي، واتفقنا على الزواج، ولم أكن لأتراجع أبدًا، إلى أن صار بعض الأصدقاء يذكر أمامي أنها على علاقة مع شخص آخر، وبالفعل بدأت ألاحظ منها بعض التصرفات الغريبة، وكانت قد صارحتني بموضوع الحمل قبل ذلك بأيام. حين واجهتها بما سمعت مع تأكدي أنني رأيتها برفقته لم تنكر، بل صرحت لي أنها على علاقة كاملة معه، حينها جننت وطردتها من منزلي، اليوم عادت وأتت إلى تطلب إيجاد حل لمشكلة الحمل، طلبت منها أن تؤكد لي إن كان ابني أم لا، فأجابت بأنها "لا تعرف"، صرخت في وجهها وطلبت منها الذهاب.

بانت في عينيه أثر الهزيمة والحزن ووجدته يكرر كلماته قائلاً:

– فاطمة، لو أنها تؤكد لي أن هذا الطفل هو ابني، أنا مستعد لمسامحتها، فاطمة هل تعرفين أي شيء آخر؟

كانت الأحداث السابقة تتوافد إلى مخيلتي، وكلماته أصابتني بحالة من الذهول التام، دفعتني للتأكد من أني لا أعرف أي شيء، ثم تركته ورحت أسير لمدة ساعة من الزمن حتى أحسست بالإنهاك فعدت إلى المنزل.

لم أجد "سحر"، كان باب غرفتها مفتوحا، وهاتفها متروك على الطاولة، اتصلت "بوائل" وأخبرته، فأجابني أنها من الممكن أن تكون غادرت إلى الضيعة، وسيتصل بي في حال معرفته مكانها.

بعد مرور ثلاثة أسابيع عادت سحر إلى المنزل، لتأخذ شيئا من أغراضها، بدت لي مختلفة تمامًا، وكأنها شخص آخر قادم من عالم الأشباح، شاحبة، ناحلة يبدو عليها المرض، قاتمة منهكة، حاولت سؤالها عن أيام غيابها، عن حالتها الصحية، لكنها لم ترغب بالتجاوب معي، وظلت جملها مقتضبة وغير موصولة، أحيانًا تضحك بشكل هستيري وهي تدخن، وتؤكد لي بأن علاقتها مع ابن النائب الذي سيأتي لينقلها بسيارته الآن سوف تنتهي بالزواج، ثم تعود للحديث عن "وائل" بأنه خسرها للأبد وأنها لا تفكر بالعودة إليه. كانت هذه هي المرة قبل الأخيرة التي رأيتها فيها لكن

قدومها في مثل هذه الزيارات الخاطفة تكرر أكثر من مرة إلى أن طلبت منها صاحبة الشقة مغادرة الغرفة تمامًا.

المرة الأخيرة التي رأيتها فيها، كانت بعد ذلك بأعوام، بعدأن تخرجت وبدأت في التدريب في مكتب أحد المحامين المعروفين، كان ذلك لدى عبوري "شارع الحمرا" مساء برفقة أحد الأصدقاء، كانت تقف إلى جانب مقهى "ومبي" مع شاب أجنبي، ممسكة بيدها زجاجة بيرة، وترتدي بنطالاً شفافاً يلتصق بجسدها، وبلوزة قصيرة تكشف عن بطنها.

رغم تغير ملامحها استطعت تمييزها، لكنني تابعت طريقي وإحساس حاد بالحزن والرثاء يملأ داخلي. وكلما كنت أذكر "سحر" تعود إلى ذاكرتي صورتها الأخيرة في الشارع، وأتساءل "أين الحقيقية"؟ من كان كاذبًا أو من كان صادقًا؟ من الذي ظلم؟ لكن رغم ذلك لم أستطع العثور على إجابه.

إلى أن جاءني اتصالها الغريب في تلك الليلة، تطلب مني النجدة ودون سؤالها عن أي شيء كنت قد وعدتها بالمساعدة. لكن بعد أن وضعت سماعة الهاتف، وبعد أن برد صوتها في داخلي، عاد إلى التردد والخوف من لقائها، من

وجـودي معهـا، مـن تلويـث اسمـي وسمعـتي، في المـرة الثانيـة تجاهلـت هاتفهـا، وفي صبـاح اليـوم التـالى أبصـرت صـورتها في الجريـدة في حادثـة قتـل غامضـة مشـبوهة، جـاء في الخـبر، بأن أجهـزة الأمـن لم تسـتطع التعـرف علـى صـاحبة الجثـة .. تـرى ماذا كانت تريد أن تقول لي؟

٢٠٠٣/١/٤

الفهرس